البنيوية التكوينية وآلياتها في رواية الجبل لفتحي غانم

د. سعيد فرغلي حامد علي

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد

قسم اللغة العربية كلية الآداب _ جامعة أسيوط

ملخص:

يرمي هذا البحثُ إلى دراسة البنيوية التكوينية وآلياتها الإجرائية في رواية "الجبل" للكاتب والروائي المصري فتحي غانم (١٩٢٤: ١٩٩٩م)، وإظهار ما تُجليه هذه الرواية في رسم ملامح مجتمع الجبل في أربعينيات القرن العشرين، وإبراز جوانبه الاجتماعية وفقًا لآليات المنهج البنيوي التكويني كما أسس له عالمُ الاجتماع لوسيان جولدمان Lucian Goldman (١٩١٣:١٩٧٠م)؛ إذ إن البنية النصية والروائية في رواية الجبل متضافرةٌ بالبنية الاجتماعية، التي سعى الكاتبُ إلى تمثيلها في عمله، ومن ثم تلبستْ البنيةُ السردية لدى الكاتب بخلفية إيديولوجية (واقعية اشتراكية)، وقد تطلب الكشفُ عن هذه البنية تحديد أنماط تجلي المضامين والدلالات الداخلية في الشكل الروائي ومماثلتها للواقع الاجتماعي وفقًا لمرحلته التاريخية.

الكلمات المفتاحية:

البنيوية ، التكوينية ، إيديولوجية ، رواية الجبل ، الإجرائية.

Agenetique Structural And Its Mechanisms In The Mountain by Fathi Ghanem

Abstract :

This research attempts to present a structural, formative study of the Egyptian writer Fathi Ghanem's novel "The Mountain" (1924 - 1999 AD), bringing to the fore the features of Al-Jabal society in the 1940s, while highlighting its social aspects in accordance with the mechanisms and pillars of the formative structural approach, as established by the sociologist Goldman Lucian (1913 -1970). The textual and narrative structure in the "The Mountain" novel is inextricably intertwined with the social structure, which the writer sought to represent throughout his novel. Moreover, the writer's narrative structure was imbued with an ideological background (socialist realism). Revealing this structure required identifying patterns of manifestation of the internal connotations in the novel form and comparing them to social reality according to its historical stage.

Keywards:

Structuralism, compositionalism, ideology, mountain novel, proceduralism.

مِهـادٌ نظـري:

تميـزت البنيويـةُ الشـكلية Structuralism منـذ ظهورهـا بطرحهـا الحـداثي الثوري عبر ما قدمته من أفكار، ونظرات كان لها تأثيرُها الفاعلُ في تغيير الفكر الاجتماعي الفرنسي منذ صدور كتابات عالم الاجتماع الفرنسي كلود ليفي شتراوس strauss (١٩٠٨: ٢٠٠٩م)، التـي كانـت تكريسًـا للنزعـة البنيويـة التـي اجتاحـت الكثيـرَ مـن المجـالات والتيـارات الفكريـة، ومارسـتْ قطيعـة معرفيـة معهـا وبخاصـة الماركسية، والوجودية بوصفهما المهيمنتين على الساحة الفكرية والمعرفية الغربية وقتئذ، وبخاصـة فـي كتابيـه "المـدارات الحزينـة Tropique Tristes١٩٥٥م"، و"الأنثروبولوجيـا البنيويـة Structurlism Authropolegie" ١٩٥٨م"، وهـذا الأخير، الذي "مهد فيه الطريق للانثربولوجيا البنيوية، وتقبل فكرة المنهج البنيوي الذي يحاول الكشف عن الأبنية العقلية الكلية العميقة في الإبداع الأدبي، كما أنها تظهر في الأبنية الاجتماعية الأكبر وفي الفلسفة والأدب والأنماط النفسية اللاواعية في السلوك الإنساني"(١).

جاءتْ البنيويةُ الشكلية أو الألسنية بعد فترة زمنية ساد الغربَ خلالها عددٌ من النظريـات، والمنـاهج اتسـمت أغلبهـا بالتـداخل مـع كثيـر مـن المجـالات المعرفيـة والعلمية من جهة، والتشظي والتشرذم من جهة ثانية لتحل البنيوية بديلًا عن هذه النظريات والمناهج؛ إذ حاولت منذ البداية جمعَ أشتاتها وضم متفرقاتها وامتداداتها المعرفية في محصلة واحدة ترتكز على اللغة؛ حيث لا توجد بنيةٌ إلا مع وجود لغة؛ ولذا فغاية البنيوية الأولى تكمن في محاولة اكتشاف كيفية انبثاق المعاني اللغوية من التراكيب أو الأبنية انطلاقًا من أن كافة الظواهر الإنسانية والمعرفية تُشكل بنى، وهذه البنى لا يمكن بحثها ودراستها إلا بعد تحليلها وفحص مكوناتها المؤلفة منها

---

[١]- إديث كريزويل. عصر البنيوية. تر: جابر عصفور. دار سعاد الصباح. الكويت ١٩٩٣م. ص: ١٧ .

على أن يكون هذا البحثُ وذلك الفحص من داخل البنية نفسها دون تدخل فكر المحلل أو الفاحص أو أي عوامل ومراجع سياقية أو خارجية أخرى.

اعتمد البنيويون الشكليون إذن في فحصهم على تحديد وظائف العناصر المترابطة الداخلة في النص، واستندوا في طريقتهم الوصفية لقراءة النص الأدبي على خطوتين أساسيتين، هما: التفكيك والتركيب؛ إذ لم يولوا المضمون اهتمامًا مباشرًا، بل ركزوا على شكل هذا المضمون وعناصره التي تشكل نسقية النص في تآلفاته واختلافاته، وهو الأمرُ الذي أكده فرديناند دي سوسير F.De Saussure (١٨٥٧ : ١٩١٤م) منذ مرحلة مبكرة حينما قرر أن اللغة هي "شيء محدد تحديدًا واضحًا، ضمن الكتلة غير المتجانسة لعناصر اللسان ... وهي نسق من العلامات تتحدد دلالاتها داخل شبكة محددة"(١)، وهو التأكيدُ الذي جعل النقدَ البنيويَّ الشكليَّ يُعنى فقط بالوصف، ويكتفي بالتنقيب في البنية الشكلية للنص دونما عناية بشرح هذه البنية تحت ضَوء العلاقات الخارجية للنص أو ربط هذه البنية بالخارج من خلال دراسة الأوساط والمراجع التي أنتجتها، ومنها المرجع الاجتماعي.

البنيوية التكوينية Structuralisme genetique :

رغم المحاولة الجادة للبنيويين الشكليين لقراءة النصوص وتحليلها واعتماد مكوناتها اللغوية والأدبية فإنهم وقعوا في مزلق الانكفاء على النص، وعزله عن كافة السياقات المعرفية والاجتماعية الأخرى، ومن ثم لم يتمكنوا من الإحاطة الشاملة بكافة جوانب العملية الإبداعية، والأدبية إلى أن جاءت فترة زمنية بدأت من العام ١٩٥٢م، وحتى ١٩٧٠م وهي الفترةُ التي قدَّم فيها عالمُ الاجتماع الفرنسي ذو الأصول الرومانية لوسيان جولدمان Lucian Goldman (١٩١٣:١٩٧٠م) منهجَ

[١]– فرديناند دي سوسور. علم اللغة العام. ترجمة: يوئيل يوسف عزيز. مراجعة: مالك يوسف المطلبي. سلسلة آفاق عربية (٣) بغداد ١٩٨٥م. ص: ٣٣، وما بعدها

البنيويـة التوليديـة Structuralisme genetique(*) بوصـفه مراجعـة للبنيويـة الشـكلية ولـيس تحـولًا لهـا أو كيانًـا مـن كياناتهـا؛ إذ لـم يحصـر جولـدمان بأفكـاره الماركسية الجدلية Dialectic الطرحَ البنيويَّ في العلاقات الداخلية للنص بل راعى كذلك العلاقات الخارجية، فغدت اللغةُ _من وجهة نظره_ وعاء، ووسيلة اتصال موضوعي تنطلق من الوعي الذاتي إلى الوعي الجمعي؛ حيث يكشف الأدبُ عن الـوعي الطبقـي للمجتمعـات البشـرية انطلاقًـا مـن العلاقـة الوطيـدة بـين الأديـب والظروف الاجتماعية من جهة، والأديب والمتلقي من جهة ثانية، ذلك أن الأديب حينمـا يُقـدم أثـرا للمتلقـي يقدمـه بـوعي محـدد، شـريطة أن يكـون بينهمـا تواصـل، وتوصيل، وهو الأمر الذي يجعل من البنيوية التكوينية منهجًا سياقيًا، وليس نسقيًا انطلاقًـا مـن مجـال اهتمامـه بدراسـة السـياقات الاجتماعيـة، والتاريخيـة، والنفسـية المُحيطة بالنص.

تأثر جولدمان في مشروعه البنيوي التكويني بأستاذه الكاتب والفيلسوف المجري جـورج لوكـاتش Georges Lukacs (١٨٨٥ : ١٩٧١م)، أحـد أهـم رواد علـم اجتمـاع الأدب فـي القرن العشرين، وجملـةٍ مـن المفكرين الماركسـيين أمثـال عـالم الـنفس الفرنسـي جـان بياجيـه Gean Piaget (١٨٩٦ : ١٩٨٠م)، "وقد أشـار

---

* يُطلـق عليهـا عـددٌ مـن المسـميات منهـا: البنيويـة التكوينيـة، والبنيويـة التركيبيـة، والبنيويـة الجولدمانيـة، والهيكلية الحركية، والنقد السوسيولوجي، والمنهج الهيكلاني التولدي، والبنيوية الماركسية، والواقعية البنيوية، والبنيويـة التوالدية، والبنيويـة الدينامية، والبنيويـة الوراثية، والبنيويـة الجدلية، والسوسيولوجيا الجدلية للأدب، والتأصيلية ...، ويرجع هذا الاختلافُ أو التُعدُّد في هذه المسميات إلى ترجمة المصطلح الغربي الفرنسي Structuralisme Genetique، واختلاف النقاد والباحثين حولَ ترجمته أو تبنيهم لأي مصطلح منها وقد ارتضى الباحثُ تسميتها هنا بالبنيوية التكوينية نظرًا لقرب هذه التسمية من المصطلح الأجنبي، وكذا لتبني عددٍ كبير من النقاد والباحثين لها.

للمزيد حول إشكالية مصطلح البنيوية التكوينية يُنظر:

_ نور الدين صدار. البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة. عالم الكتب الحديث. الأردن ٢٠١٨م. ص: ٦٢، وما بعدها

_ يوسف وغليسي. إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد. منشورات الاختلاف. الدار العربية للعلوم (ناشرون) الجزائر ٢٠٠٨م. ص: ١٤٧ : ١٥٠

غولدمان إلى تأثير بياجيه تحديدًا في استعماله لمصطلح "البنيوية التكوينية": "لقد عرفنا أيضًا العلوم الإنسانية الوصفية، وبتحديد أكثر المنهج الماركسي بتعبير مماثل تقريبًا (استعرناه، علاوة على ذلك، من جان بياجيه)، هو البنيوية التكوينية""(١)

اهتم جولدمان _وبأثر من أساتذته_ بدراسة النص بوصفه بنية تجسيدية للطبقات الاجتماعية بمستوياتها المختلفة ونتاجا لوعي المجموعة وليس عملًا فرديًا أو ذاتيًا، وهو الأمرُ الذي ابتعد بطرح جولدمان المنهجي عن النهج السوسيولوجي التي ساد من قبل بآلياته وأفكاره وعلى رأسها الانعكاس الذاتي Self_reflexivity وفكرته، التي تستند على الفلسفة الواقعية المادية، وبوصف فكرة الانعكاس نقيضًا لمبدأ التكوين، وهو المبدأ الذي ارتكز عليه النقدُ البنيوي، وفيه يحاول الناقدُ والمحلل البنيوي التكويني أن يُجيب على تساؤل رئيس مفاده: كيف يتكّون النصُ الأدبي؟.

تأسيسًا على ما سبق فإن "مشروعَ البنيوية التكوينية حقق هدفين معًا أنقذ البنيوية الشكلية من انغلاقها على النص كما أنقذ المنهجَ الاجتماعي من أيديولوجيته التي تُقيّم الأدبَ من وجهة نظرها هي فحسب"(٢) أو أنها –وفق تعبير آخر– تُعَدُّ حلًا وسطيا بين منظومتي المناهج السياقية، التي سبقت البنيوية والتي تُفسر النصَ من خارج النص، والمنهج البنيوي، الذي يُفسر النصَ من داخل النص نفسه انطلاقا من أن العلاقة بين الأدب والواقع وفقا لمنهج جولدمان، وعلى حد تعبيره "لا تتم بين محتوى الأعمال الأدبية ومحتوى الحياة الواقعية، بل بين البنية الذهنية لمجموعة اجتماعية معينة والبنية الكلية الدالة للعمل الفني"(٣)، ومن ثم يغدو النصُ الأدبي عنده بنية شكلية تُناظر بنية المجتمع المحيط بالنص، والمُنتج له.

---

[١]– ميجان الرويلي، وسعد البازغي. دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا) المركز الثقافي العربي.ط٣. بيروت_الدار البيضاء ٢٠٠٢م. ص: ٧٦، وما بعدها

[٢]– محمد عزام. تحليل الخطاب الأدبي على ضَوء المناهج النقدية الحداثية (دراسة في نقد النقد). اتحاد الكتاب العرب. دمشق ٢٠٠٣م. (النسخة الالكترونية بصيغة Microsoft Word) ص: ٢٢٥، وما بعدها

[٣]– لوسيان جولدمان. العلوم الإنسانية والفلسفة. ترجمة: يوسف الأنطاكي. مراجعة: محمد برادة. المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة) القاهرة ١٩٩٦م.ص: ١٠، وما بعدها

أما عن مصطلح البنيوية التكوينية فإن لفظة البنية Structure الداخلة في المصطلح الجولدماني تختلف عن البنية السوسيرية _نسبة إلى فرديناند دي سوسير_، حتى أن جولدمان نفسه قد تحرج لاستخدام مصطلح البنية في منهجه، فهي كما يقول: "مع الأسف، ذات رنين سكوني، مما يجعلها غير دقيقة دقة صارمة، وذلك لأننا نصادف في الحياة الاجتماعية الواقعية بنيات قليلة بل بالأحرى نصادف عمليات لتشكيل البنيات، عمليات يمكن وضعها في علاقة مع البنيات الذهنية الخاصة لا بالأفراد بل بالمجموعات والطبقات"(١) بما يعني أنه يوجد اختلافٌ في النظرة المفاهيمية للكلمة فالأولى محددة وسكونية وصامتة، والثانية غير محددة بل متطورة ومتحركة خارج حدود اللغة أو الشكل وهذا الاختلافُ يرجعُ إلى تعامل البنيوية الشكلية مع النص دون النظر إلى سياقاته الخارجية، وفواعله المرجعية أما الثانية (البنيوية التكوينية) فتُولي عناية بالذات الفاعلة "وهذا أهم ما يميز البنيوية التكوينية من حيث تشديدها على الذات وليس الموضوع فقط، فعلى مستوى الأدب لا يُنظر إلى النص بمعزل عن المؤلف، بل يُنظر إلى النص بوصفه بنية، وهذه البنية نتاجٌ لذات تاريخية مجاوزة الفرد، ويُنظر إلى هذا النتاج باعتباره مؤديًا لوظيفة دالة بالنسبة لهذه الذات التاريخية المنتجة له"(٢)، وهو الأمرُ الذي يشي بعدم توقف البنية عند جولدمان على البحث اللغوي الشكلي بل إنها تجاوزته إلى ربط هذا الشكل بكل ما هو خارجي من عوامل وفواعل ذاتية، واجتماعية، وتاريخية، وسياسية "فقد كان يخشى "أي غولدمان" السكون والثبات والجمود الذي يمكن أن تعنيه هذه الكلمة؛ ولذا فإن غولدمان يُفكر في بنية دينامية متجددة دوما تلغي المعنى السلبي الذي كان يخشاه في البنية"(٣)

---

[١]- لوسيان جولدمان وآخرون. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. ترجمة: محمد سبيلا. ط٢ مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٦م. ص: ٤٦

[٢]- جابر عصفور. عن البنيوية التوليدية قراءة في لوسيان جولدمان. فصول (مجلة النقد الأدبي) المجلد الأول. العدد الثاني. القاهرة ١٩٨١م. ص: ٣٤

[٣]-جمال شحيد. في البنيويةالتركيبية دراسةفي منهج لوسيان جولدمان.دار التكوين.دمشق٢٠١٣م. ص:٨٥

أما التكوينُ فيُقصد به وفقا لمقاربة حميد لحمداني "ربط العمل بالبنى الفكرية الموجودة خارجه، أي تفسير هذا العمل، وإدراك وظيفته ضمن الحياة الثقافية في الوسط الاجتماعي"(١) بما يعني أن مصطلح البنيوية التكوينية مصطلحٌ مركب من الفهم البنيوي، والتكوين أو التفسير لهذه البنية "من حيث إن مفهوم التكوين لا يتحقق إلا بتحرك عناصر الجدلية المتمثلة في الإبداع والرؤية والتاريخ فالجدلية القائمة بين هذه العناصر هي التي تُحقق صفة التكوين، أي أن العمل الإبداعي لا يُفسر كعمل ذاتي إلا بالبحث عن عناصر تماثله في الواقع، وبالتنقيب عنها تنشأ صفة التكوين التي كانت العامل الذي يتماهى وراء الإبداع من حيث رؤية وشكل. ومن هذا المنظور فإن البنيوية التكوينية ليست تركيبا أو مزجا أو انعكاسا بين مضمون وواقع أو داخل وخارج، أو مكون باني وسطح، إنما جدلية بين هذا وذاك"(٢)

بِناءً على ما سبق تتحدد وجهة النظر إلى علم اجتماع الأدب والعلاقة التي تربط بين النص الأدبي، والواقع الاجتماعي وفقًا لعدد من المراحل المنهجية المتطورة عن علم اجتماع الأدب أو سوسيولوجيا الأدب عبر التسلسل الآتي:

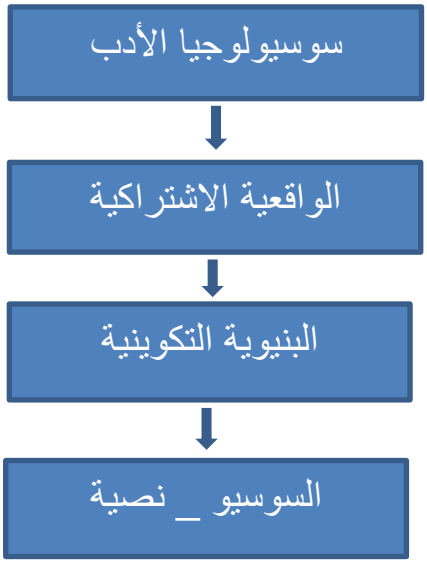

١- حميد لحمداني. النقد الروائي والإيديولوجيا (من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي). المركز الثقافي العربي. بيروت ١٩٩٠م. ص: ٦٨

٢- نورالدين صدار. البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة. ص: ٦٣

أما أصولُ الاتجاه البنيوي التكويني فتمتد إلى المنهج التاريخي ذي البعد البيوغرافي، ثم تمخضت بعد ذلك الماركسية مع الفكر النظري الواقعي الاشتراكي، الذي أعقبه تشكل البنيوية التكوينية، التي جاءت بالتزامن مع بواكير ما يُسمى بـ"الرواية الجديدة أو الموجة الجديدة للرواية"(١)

ووفقًا للتحليل الإجرائي يتناول المحلل البنيوي التكويني النصَ من خلال زاويتين متكاملتين ومتفاعلتين معًا (الداخل والخارج):

الأولى: الفهم Comprehension، وهي زاوية نسقية تُراعي العلاقات والأنظمة الداخلية للنص وتعني الدراسة الشكلية، ومحاولة كشف الأنساق، وهو "مسألة تتعلق بالتماسك الباطني للنص، وهو يفترض أن نتناول النصَ حرفيا، كُلُّ النص ولا شيءَ سوى النص"(٢)

الثانية: التفسير Explanation، وهي زاويةٌ سياقية من شأنها دراسة السياقات النفسية، والاجتماعية، والتاريخية، التي يتولد عنها النص، وذلك عن طريق البحث في البيئة المكّونة للنص، ومحاولة دمج بنية الفهم في بنية أوسع وأشمل هي بنية المجتمع، والطبقة.

ومن خلال هاتين الزاويتين حاول جولدمان تأسيسَ منهجه إجرائيًا عبر عمليتين مترابطتين تؤدي إحداهما إلى الأخرى، فإذا كان الفهمُ هو بمثابة الكشف عن البنية الداخلية للنص ممثلة في الدلالة الاجتماعية الموجودة بالنص والأكثر ترددًا فيه، فإن التفسير هو محاولة ربط البنية الداخلية للنص بالبنية الاجتماعية الشاملة للمجتمع، وهذا الأمرُ لا يتم إلا عبر وسيط يربط ما بين الاثنين هو "رؤية

---

[١]- للمزيد حول الرواية الجديدة والواقع يُنظر: لوسيان جولدمان وآخرون. الرواية الجديدة والواقع. ترجمة: رشيد بنحدو. (كتاب الدوحة) وزارة الثقافة. قطر ٢٠١٨م. ص: ٥، وما بعدها.

[٢]- لوسيان جولدمان. المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ترجمة: مصطفى المسناوي. دار الحداثة. بيروت ١٩٨١م. ص: ١٤.

العالم" من حيث إن النصَ أو العمل الأدبي لا بُدَّ وأن يكون وثيقَ الصلةِ بالواقع الاجتماعي للأفراد؛ إذ "لا يمكن لعمل مهم أن يكون تعبيرًا عن تجربة فردية خالصة _على حد تعبير لوسيان جولدمان_"(١)

وقمينٌ بالإيماءة هنا أن التفاعل والتكامل بين هاتين الزاويتين يتم وفق ربط **جدلي** بغيةَ الوصل ما بين داخل النص وخارجه بما يؤكد أن مشروع جولدمان البنيوي التكويني مشروعٌ تكاملي وشامل يهدف "إلى استشراف إيجابية تنسجها الجدلية القائمة بين الذات والموضوع، تلك الجدلية الممثلة لجوهر كل علم تكويني فداخل كل بنية توجد بذرة نافية لها، بذرة تُؤشر على ما ستكونه، أي بداية "تبنين" يُؤسس بنيات جديدة ويلغي البنيات القائمة والبنيوية التكوينية في اعتبارها لكلية الظواهر وترابطها تنطلق من نقد الواقع القائم الناقص. من زاوية استحضار ما يتكون عبر الجدلية المحايثة"(٢) وهو ما يجعل البنيوية التكوينية منهجًا صالحًا لدراسة الأعمال الأدبية وغير الأدبية كالأعمال الفكرية، والتاريخية، حيث إن كل عمل له مكون بانٍ أو بنية عميقة دالة وله في الوقت نفسه مكون سطحي خارجي كان سببا في وجوده.

ومن الجدير بالذكر أن اتجاه البنيوية التوليدية قد ارتبط منذ نشأته في الغرب بالفن الروائي والرواية سواءٌ عند لوسيان جولدمان أو من قبل عند أستاذه المفكر الهنجاري جورج لوكاش George Lukacs (١٨٨٥ : ١٩٧١م) وبخاصة في كتابيه التاريخ والوعي الطبقي ١٩١٣م، ونظرية الرواية ١٩٢٠م.

وعلى صعيد الدرس النقدي العربي فقد وجد النقادُ، والباحثون العربُ في البنيوية التكوينية بداية من سبعينيات القرن العشرين الحلَ المناسبَ للمّ شمل

---

[١]– لوسيان جولدمان. مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية. ترجمة: خيري دومة. فصول (مجلة النقد الأدبي) العدد الثاني. المجلد الثاني عشر. القاهرة ١٩٩٣م. ص: ٢٤.

[٢]– مجموعة من المؤلفين. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. راجع الترجمة: محمد سبيلا. الطبعة الثانية. مؤسسة الأبحاث العربية. لبنان ١٩٨٦م. المقدمة ص: ٨.

المنهجين العلمي الشكلاني، والماركسي السوسيولوجي في مقاربة الأعمال الأدبية ومن ثَمَّ أقبلوا عليها تأطيرًا نظريًا، وإجراءً تطبيقًا ومنهم من جمع بين التنظير والتطبيق في دراسة واحدة؛ ولذا شهد الدرسُ النقديُّ طفرةً في الدراسات، والبحوث التي ظهرت تحت عنوان _دراسة بنيوية تكوينية_ وبخاصة في المجال السردي الروائي؛ إذ حققت البنيوية التكوينية حضورًا قويًا ومتميزًا في هذا المجال أو الميدان.

الرواية والتمثيل الاجتماعي:

يسعى الفنُ الروائي دومًا نحو تقديم تصور اجتماعي للحياة، والواقع انطلاقا من التجارب الفردية، والشخصية التي تُشكل المجتمع بكافة طبقاته، وما يُواجه كل طبقة من أحلام وطموحات، أو تحديات ومعوقات انطلاقا من أن الرواية تُعَدُّ من أكثر الأجناس، والأنواع الأدبية تعبيرًا عن مفهومي الذات والواقع، واستحضارًا للمظهر الاجتماعي؛ إذ إنها تُقدِّم رسالة معرفية وأدبية تنهض وفق تشكيل فني متنوع، وهذا التنوعُ هو الذي يربطها بالحياة والمجتمع بوصفها بنية دلالية داخلية تندرج ضمن سياق اجتماعي خارجي، أو أنها _وعلى حد تعبير لوسيان جولدمان_ "قصة بحث عن قيم أصيلة بصيغة متدهورة، وفي مجتمع متدهور، ويتجلى هذا التدهور أساسًا وبخصوص البطل في الوساطة وفي اختزال القيم الأصيلة إلى المستوى الضمني، ثم اندثارها باعتبارها حقائق أكيدة"(١)، ودور الباحث يكمن في محاولة اقتفاء ممارسة الشخصيات داخل المجتمع ومتابعتها؛ إذ إن "الرواية المصرية قد التزمت في معظم الأحوال بتقديم رؤى اجتماعية للواقع المصري تتميز بكثير من الدقة والتعمق والصدق ... وتقدم في مرحلة النضوج ما يمكن اعتباره وثائق سوسيولوجية شيقة"(٢)، وهذا الالتزام لا ينفصل عن التحول الحاصل في

---

[١]- جانفيف موييو. تعريف سوسيولوجي للرواية. ترجمة: رشيد بنحدو. ضمن كتاب: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. ص: ١٠٧.

[٢]- إنجيل بطرس سمعان. دراسات في الروايةالعربية.الهيئةالمصرية العامةللكتاب.القاهرة ١٩٨٧م. ص:٧٤

اتجاهات الرواية بداية من خمسينيات القرن الماضي وما شهدته هذه الفترة من تحولات سياسية، واجتماعية.

وقمينٌ بالإشارة هنا أن العمل الروائي يتجه صوب تمثيل المجتمع برؤاه وتناقضاته المختلفة وتقديم تصورات اجتماعية لمختلف تجارب الأفراد والطبقات الاجتماعية وما ينتاب كل فرد وطبقة من أحلام وتطلعات أو مشاكل وانتكاسات، وهذا التمثيلُ Representation يتم عبر ما أسماه جولدمان بالبنيات المقولية أو الذهنية، وهي البنياتُ "التي تحكم سلوك المجموعة الاجتماعية وفكرها ... إن الأمر هنا يتعلق بوعي جمعي يشترك فيه أفراد المجموعة الاجتماعية"(١)، والروائي بينما يقوم بتمثيل المجتمع وفقا لإيديولوجيته، وتمثيلها بنيويا في عمله الروائي حتما تمتزج رؤيته الخاصة بهذا المجتمع انتماءً، أو رفضًا وتمردًا وانهزامًا

وفي هذا السياق _ومن خلال التطبيق على الرواية_ نجد أن أهل الجبل قد مثلوا الانتماء الواقعي والاجتماعي، وقد استندوا في معرفتهم ووعيهم لمتطلبات المكان مجسدين هذه المعرفة والانتماء للمكان (الجبل) عن طريق الضمير الجمعي (نحن)؛ ولذا فإن صوت هذا الضمير يعد الإطار الجمعي الحامل والفاعل لرؤية العالم في هذه الرواية.

وعلى نحو متصل يدور منهجُ البنيوية التكوينية حول فكرة محورية مؤداها أن الزمرة أو الفئة الاجتماعية هي المبدعُ الحقيقي للنص، وأن الفكر الاجتماعي لهذه الفئة هو الخالق للأثر الأدبي، ودور الكاتب يكمن في تنظيم هذا الفكر، وتنسيق مكوناته، وتجليتها والباحث أو المحلل الذي يُطبق الاتجاه البنيوي التكويني عليه أن يبحث في التماثل البنيوي Homologie بين فكر الطبقة الاجتماعية، وفكر النص الأدبي؛ إذ "تبحث البنيوية التكوينية في أربع بنيات للنص : البنية الداخلية للنص، والبنية الثقافية (أو الإيديولوجية) والبنية الاجتماعية، ثم البنية التاريخية، وهذه

[١]– لوسيان جولدمان. العلوم الإنسانية والفلسفة. ص: ١٥

البنيات متكاملة ومتفاعلة فيما بينها"(١) ومن هنا تتضح صعوبة منهجية البنيوية التكوينية، ولعل هذه الصعوبة هي التي دعت جولدمان إلى اعتماد المادية الجدلية Dialectical Materialism وسيلة لفهم العلاقات الرابطة بين الأعمال الإبداعية وسيروراتها الاجتماعية والتاريخية من أجل إظهار البنى العميقة المتجاوزة للذات الفردية (الكاتب)، التي هي نتاج التطور الاجتماعي والتاريخي، وهو ما يعني أن العمل أو النص ليس نتاجا فرديا، وإنما هو نتاج اجتماعي، وهو الأمر الذي تحقق في الرواية محل الدراسة؛ إذ انخرط فتحي غانم في الواقع الجمعي لأهل الجبل، ومن ثم توارى المكون الذاتي للكاتب وأفسح الميدان للطبقة الاجتماعية كي تُعبر عن قضاياها، وطموحاتها، وهو الأمرُ الذي أسماه جان بودريار Gean Baudrillard (١٩٢٩ : ٢٠٠٧م) "هيمنة الأصل"، ففي هذه الرواية _التي بين أيدينا_ ارتدى الكاتبُ زيَّ الطبقة الاجتماعية كي يُعبّرَ عن واقعها الحياتي والمعيشي، وذاتها الجمعية.

من التنظير إلى التطبيق (رواية الجبل ١٩٥٧م):

صدرت روايةُ الجبلِ للمرة الأولى سنة ١٩٥٧م، وهي العملُ الروائيُّ الأولُ لفتحي غانم، وقد كتبها استنادًا على تجربة شخصية عاشها الكاتبُ حينما كان يعمل بوزارة المعارف وقتئذ مفتشًا للتحقيقات، وتم تكليفه للسفر لإجراء تحقيق في قرية القرنة أو الجرنة (باللهجة الصعيدية)، وهي القرية النموذجية التي شيدتها الحكومة آنذاك لسكان الجبل وأشرف عليها المهندسُ المعماري حسن فتحي بيد أن سكان الجبل رفضوا النزول إلى هذه القرية والسكن فيها، وتمسكوا ببقائهم بالجبل؛ لارتباطهم بأعمال الحفر والتنقيب عن الكنوز، والآثار وبيعها للأجانب وهو ما يُشكّل بالنسبة لهم _ووفقا لرؤيتهم_ مصدر رزق وأن نزولهم لهذه القرية يعني

[١]- محمد عزام. فضاء النص الروائي (مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان). دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية. سوريا ١٩٩٦م. ص: ٤٢

حرمانهم من هذا المصدر، بالإضافة لعدم تقبلهم للتصميم المعماري والهندسي الحديث لهذه القرية.

تدور أحداثُ الرواية إذن حولَ تجربة واقعية وحقيقية، خلال أربعينيات القرن العشرين إبان الحكم الملكي لمصر، وقد نسج الكاتبُ حول هذه الأحداث الواقعية عالما أدبيا تناظيرا أو تماثليا؛ حيث تماثل الواقع مع التسجيل الأدبي والروائي، وهو تماثلٌ يكشف عن قدرة الكاتب العالية على التحليل النفسي والاجتماعي لشخصيات هذا العمل وفق رؤية واقعية وذاتية، "والحقيقة أن ذاتية "فتحي غانم" _كما يقول نبيل حداد_ قد بثت في "الجبل" حرارة كان العمل بدونها سيكون أقرب إلى التحقيق الصحفي Investigative Report بأسلوب المتكلم person First Approact"(١)

يُصنف الراوي في هذه الرواية بأنه الراوي المشارك، والمتفرد بصناعة الأحداث، والوقائع وسردها، والسارد في حديثه يرتكز على منحى ذاتي مستخدما ضمير المتكلم (أنا / السارد)، متحدثا عن نفسه، وعن جملة الأحداث التي تقع أو يشاهدها بوصفه ضميرا يصف الحوادث والأشخاص، وفي مثل هذا النوع من السرد يتداخل صوتا أو شخصيتا السارد، والرواي في صوت واحد.

أما موضوعُ الرواية فهو الصراعُ الطبقي والإيديولوجي بين طبقتي البدو (مجتمع الجبل أو سكان الصحراء الداخلية)، والحضر (مجتمع الحضر أو سكان المدينة) في مصر إبان أربعينيات القرن الماضي، ولما كانت الرواية تنهض على صراع الطبقات وبخاصة الاجتماعية؛ إذ إن الجانب الاجتماعي واضحٌ في الرواية من خلال تطلع شخصيات الرواية إلى معيشة أفضل، وبالتالي فإن شخصياتها تتصارع نظرًا لاختلاف المفاهيم، والمصالح، والرؤى، ولاختلاف المرجعيات

١- نبيل يوسف حداد. إشكالية المؤلف الراوي البطل في رواية الجبل لفتحي غانم. المجلة العربية للعلوم الإنسانية. المجلد التاسع. العدد الثالث والثلاثون. مجلس النشر العلمي.جامعة الكويت١٩٨٩م. ص:١١١

الإيديولوجية لهذه الشخصيات ففي ظل طموحات كل جماعة وطبقة يحدث التصادم والصراع، ولا يغيب عن هذا الصراع الأسبقية الأيديولوجية التاريخية، التي مؤداها التجسيد التاريخي لواقع الجبل في مقابل التجسيد الحداثي لواقع المدينة الجديدة أو الحضر.

ووفقا للمنحى الإجرائي والتطبيقي لرواية الجبل تعرض الرواية لعدد من العلاقات الاجتماعية بين أفراد مجتمع الجبل، وترسم صورًا حية وواقعية لهذا المجتمع في علاقاته وترابطاته؛ إذ سلطت الرواية الضَوء على الواقع، الذي تعيش فيه جماعةُ الجبل، وتطرقت لدراسة قضايا التعايش، والاختلاف.

يُطلعنا السرد في الرواية بوجود ممثلين اجتماعيين عن هذا المجتمع، وتأتي على رأسهم شخصية العمدة بوصفه ممثلا اجتماعيا لطبقة محددة، وهو ممثلٌ يتبنى ثقافة التضحية والتعاون دون غرض، والمجتمع الغربي ممثلا في شخصية الخوجاية، التي تتبنى مساندة أهل الجبل بالمال ومشاركاتهم أفراحهم وآلامهم ليتضح بعد ذلك أن الغرض من وراء هذه المساندة نهب ثرواتهم وكنوزهم وبذلك يخلق البرنامجُ السردي عالمين متضادين ومتصارعين، ويهدف الكاتب من خلالهما إلى رؤية الوجود والعالم وفق منطق المغايرة فالعالم الأول يتسم بالتفاني، والإخلاص والثاني بالخديعة من أجل تحقيق مصالح شخصية وهو ما قدمه الكاتب في ترسيمته الذهنية لشخصية الخوجاية، وهي الشخصية التي لم يُقدِّم لها الكاتب اسما أو وسما بل جعلها صفة عامة، ومثل هذا التعميم وعدم تحديد الهوية أو الاسم يُعَدُّ مسوغًا فنيًا من الكاتب ورغبة منه في أن تمثل الخوجاية الآخرَ الغربي بوصفها شخصية ذات عبء رمزي، ورمزيتها تاريخية وتتمثل مهمتها ظاهريا في أعمال الخير، لكنها في الوقت نفسه تسعى سعيا حثيثا لنهب ثروات الجبل، وذلك في محاولة من الكاتب لإخفاء المرجعية السياسية عن اللغة الخارجية أو الشكل الخارجي؛ إذ تتم صياغة هذا المرجع ضمن الفعل الثقافي العام.

وعلى نحو متصل يُوضح السردُ عجز النسق البنيوي الغربي الوافد عن خلخلة النسق المقيم وقدرة الأخير على مواجهته، والصمود أمامه "**واستمعت الخواجاية إلى كلام مسعدة في غير فهم. كانت تنظر إليها مذعورة وعيناها الزرقاوان مشدودتان إلى عينيها السوداوين، وهي لا تكاد تُصدق أن مسعدة فتاة واحدة .. إنها تتكلم وكأنها جيشٌ من النساء لا تستطيع أن تصمدَ أمامه..**"[١]

وعن تصنيف هذه الرواية فهي من روايات الواقعية الاشتراكية، التي لا تتذرع بعوالم الخيال بديلا عن الواقع بل تسعى لتصوير الواقع الحياتي والمعيشي كما يفهمه الكاتبُ، الذي يحاول إخضاع هذا الواقع لسلطته بُغيةَ سبر أغواره وكشف صراعاته والوعي بها وهو الاتجاه، الذي بدأت إرهاصاته في الرواية المصرية منذ الأربعينيات وفيه يدعو الأدباء إلى عديد من المبادئ، لعل أهمها "الالتزام بنشر الأفكار الاشتراكية، وضرورة تصوير الصراع بين الطبقات الاجتماعية، والعمل على زعزعة الاستقرار البورجوازي، وكشف مساوئ الرجعية والرأسمالية"[٢]

ولعل استخدام الكاتب للهجة العامية لغة تشكيلية للحوار ما يؤكد في تقديري هذا المذهب كما في مثل هذا الحوار الذي دار بين مجموعة من نسوة الجبل:

"**تقول واحدة من النسوة:**

ـ ح نشتري بيت على الشط، وفدانين نزرعهم ونعيش عيشة الاشراف

وتقول ثانية:

ـ ح ناكل اللحم، ونلبس الحرير، وننسلوا عيال شداد

وتقول ثالثة:

---

[١] – فتحي غانم. الجبل (رواية). الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة الأدب العربي (الأعمال الإبداعية) مهرجان القراءة للجميع. القاهرة ١٩٩٤م. ص: ١٤٤.

[٢] – أرنست فيشر. الاشتراكية والفن. ترجمة: أسعد حليم. دار الهلال. القاهرة ١٩٦٦م. ص: ١٨.

_اخويا كيفه أروح معاه سيوط أخدم على مرته دلوقيت ييجي معاها ياخد نصيبه من الكنز"[١]

ومما يُعزز تصنيف رواية الجبل ضمن روايات الواقعية تحليل الكاتب في عديد من صفحات روايته لمظاهر الحياة الواقعية والاجتماعية فيما يُعرف بالطابع الإثنوغرافي Ethnography، أو وصف جملة العادات والتقاليد الاجتماعية (العراقة) في مجتمع الجبل: "**اندفع اللوري في طريق وعر، يرتفع فوق هضبة صخرية نبتت فيها الحشائش في غير نظام ...**

أظن رجالة الجبل بيحبوا الست الفرنساوية ..

وابتسم السائق وبدأ عليه الارتباك .. ولكنه أسرع يقول:

_ حد الله بينا وبين الحاجات دي .. أنا في حالي يا بيه، ما ليش دعوة بيها ..

فقلت له :

_ بيتخانقوا عليها .. بيقتلوا بعض علشانها ..

وتجهم وجهه وقال:

_ ليه يتعاركوا يا بيه .. كلهم ولد عم .. يجتلوا الغريب ما يجتلوش بعض"[٢]

ويبلغ التحليل والوصف الإثنوغرافي ذروته في أجزاء كثيرة من مقاطع الرواية كما في وصف الراوي لمكان تخزين الحبوب (القمح) كما في قوله: "**ووقفت عند شيء عجيب، كأنه قلعة ضخمة من القلاع التي تستخدم في لعبة الشطرنج، وعلى سطحها نام طفل صغير .. وقالوا لي أن هذا البناء لخزين القمح وأن سطح البناء له حافة مستديرة مائلة إلى الخارج؛ لأن العقارب لا تستطيع الزحف على المسطحات المائلة، فتحتفظ الأمهات بأطفالهن على السطح وهن مطمئنات على أطفالهن**"[٣]

---

[١]- فتحي غانم. الجبل (رواية). ص: ٤٣، وما بعدها

[٢]- المصدر السابق. ص: ٥١، وما بعدها

[٣]- المصدر السابق. ص: ٦٢

وعلى نحو متصل يُضفي الوصف الإثنوغرافي، الذي يُعَدُّ _انطلاقا من المستوى النصي والبنيوي_ مظهرًا واقعيًا واجتماعيًا نزعةً جمالية في الرواية، وقد جاء الكاتبُ به لإضفاء سمة تاريخية وبعد تاريخي على روايته من جهة، وإضفاء مصداقية واقعية من جهة ثانية.

بِناءً على ما سبق فإن رواية الجبل تحمل بُعدين :

_ البعد الذاتي الواقعي، بوصفها رواية قريبة من السيرة الذاتية للكاتب (الذات الساردة)، وبخاصة فيما تتضمنه من بنى تقوم على الوعي الذاتي المحض وتأكيد هذا الوعي عن طريق التسمية المتطابقة بين اسم الكاتب واسم بطل الرواية (فتحي غانم)، وهو وعيٌ يقوم على الانسجام، وهذا الانسجامُ يُجلي بشكل أو بآخر قدرة الكاتب على التحدث عن ذاته من جهة، ووعيه بهذه الذات من جهة ثانية، وهو الأمرُ الذي يتبدى واضحا، وجليا منذ السطور الأولى للرواية؛ إذ تبدأ الرواية بضمير المتكلم "**حدث هذا منذ أكثر من سبع سنوات، كنتُ أعمل في ذلك الوقت مفتشًا للتحقيقات بوزارة المعارف أن مررت بتجربة مريرة صدمتني وحولت كثيرا من الأفكار التي في رأسي إلى مجرد سخافات .. فكل شيء كنت أصدقه وأومن به كوسيلة لاصلاح مجتمعنا .. تبخر من رأسي كما يتبخر الماءُ من آنية تغلي فوق النيران**"[1]

يتقاطع ضميرُ المتكلم (الذات الساردة) الناقلة للأحداث من زاوية رؤيتها لها محاولا وصف الواقع الاجتماعي، وقد وُفق الكاتبُ باستخدام هذا الضمير لقدرته على "التوغل في أعماق النفس البشرية، فيُعريها بصدق ويكشف عن نواياها بحق، ويُقدمها للقارئ كما هي لا كما يجب أن تكون"(٢)

[1]- المصدر السابق. ص: ٧.

[2]- عبدالملك مرتاض.نظرية الرواية (بحثٌ في تقنيات السرد) سلسلة عالم المعرفة (العدد ٢٤٠) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ديسمبر ١٩٩٨م. ص: ١٥٩، وما بعدها.

ولعل في استخدام ضمير المتكلم أيضًا ما يُتيح فرصة ومساحة كافية للراوي لطرح وجهة نظره بخلاف غيره من الضمائر، وهو الأمرُ الذي يضمن للكاتب قناعة القارئ بواقعية الحدث فيكسب تأييده ويضمن مقروئيته ذلك أن الكاتب يعده بأنه لن يُقدم له نصا خياليا أو وهميا محضا بل سيعرض له الأحداثَ الحقيقية ويقوم بتسجيلها كما وقعت دون إفراط في التخييل أو الإيهام.

_ البعد الجماعي الخيالي، وذلك بوصفها رواية تتأسس على تقنيات الكتابة الروائية ووسائلها وتنبني عليها، فبالرغم من أن الرواية قريبةٌ من السيرة الذاتية فإن هذه الذات تشتبك بالواقع وأطره وبخاصة الإطار الاجتماعي، وهنا تتطابق الذاتان: الذات الروائية (الكاتب)، وذات الرواية (المجتمع)؛ إذ إن الذاتية أو الوعي الذاتي لا ينفي الإسقاطات التاريخية والاجتماعية أو الإيديولوجية للكاتب / السارد أو الذات الساردة.

وقد وقع اختيارُ الباحثِ على رواية الجبل لفتحي غانم واختيارها محضنا للتطبيق الإجرائي؛ لعدة أسباب، لعل أهمها: أنها تُعبر بشكل واضح وجلي عن الواقع الاجتماعي الصعيدي وبخاصة مجتمع الجبل؛ إذ تُظهر الرواية شخصية مجتمع الجبل من خلال تواجده وحضوره في هذا المجتمع، الذي يعد عنصرا بارزا، ومهما من عناصر بناء الرواية، وهو ما يجعلها محضنًا ملائمًا للتطبيق الإجرائي وفقا للاتجاه النظري، الذي اعتمده الباحثُ في بحثه.

وقمينٌ بالإشارة أن رواية الجبل لم تحظ _على حد علمي_ إلا بدراستين مستقلتين، هما:

_ نبيل يوسف حداد. إشكالية المؤلف الراوي البطل في رواية الجبل لفتحي غانم. المجلة العربية للعلوم الإنسانية. المجلد التاسع. العدد الثالث والثلاثون. مجلس النشر العلمي. جامعة الكويت ١٩٨٩م.

_ سامي Ma gie. الدلالات الحضارية والنفسية للمكان في رواية الجبل لفتحي غانم، المجلة العلمية لكلية اللغة العربية بإيتاي البارود. جامعة الأزهر. العدد الخامس والثلاثون, الإصدار الثاني. أكتوبر ٢٠٢٢م.

أما الكاتبُ فهو فتحي محمد غانم (١٩٢٤: ١٩٩٩م) "صحافي، وأديب مصري ولد بمدينة القاهرة في الرابع والعشرين من مارس ١٩٢٤م لعائلة بسيطة وعاملة، وتخرج في كلية الحقوق ١٩٤٤م، م عمل بعد تخرجه بالصحافة، وترأس عددًا من الصحف القومية، والخاصة. حصل فتحي غانم على عدد من الجوائز آخرها جائزة الدولة التقديرية من المجلس الأعلى للثقافة المصري ١٩٩٤م، ومن قبل وسام العلوم والآداب ١٩٩١م. توفي فتحي غانم في عام ١٩٩٩م عن عمر يناهز خمسة وسبعين عاما بعد أن قدم عددا من الروايات، لعل أهمها: الجبل، والرجل الذي فقد ظله، وتلك الأيام، وزينب والعرش، وبنت من شبرا، والأفيال... وغيرها"(١)

يُعَدُّ فتحي غانم واحدًا من الروائيين المنادين بتحميل الفن الروائي قضايا سياسية، واجتماعية، ومن ثم جاءت روايتُه محملة بجملة من القضايا؛ حيث يتضمن الخطاب الروائي عنده مواقفه من التطورات السياسية والاجتماعية، التي وقعت بمصر وحدثت بها في العقود الأولى من القرن العشرين، ويظهر اهتمامه في هذا السياق واضحًا بنقد الخطاب الاجتماعي.

بِناءً على ما سبق لا يمكن فصل النص الروائي عن مؤلفه، ولا يمكن فصل فكر المؤلف عن المرجع الاجتماعي الذي ينتمي إليه، أو الجماعة التي يُعبر عنها، بما يعني أن البنية النصية من منظور البنيوية التكوينية يتنازعها عاملان أو فاعلان: المؤلف، والمرجعية الاجتماعية فلا وجود لنص أو إبداع أدبي _وفقًا لهذه الرؤية_ بمَعزلٍ عن الجماعة أو الفئة الاجتماعية؛ إذ إن ربط البنية الإبداعية

[١]– فتحي غانم. موقع ويكيبديا (شبكة المعلومات الدولية). بتصرف. تاريخ الدخول:١٥أغسطس ٢٠٢٣م.

بمرجعها هو الهدف الترابطي الذي تسعى إليه البنيوية التكوينية دوما كما هو موضح بالشكل الآتي:

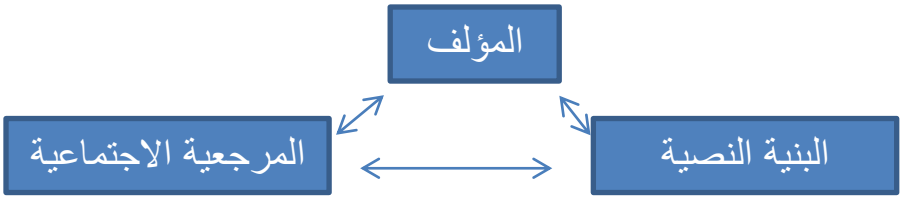

البنية الدلالية (الدالة) The Significant Structure :

تُعَدُّ البنيةُ الدالة من أوليّات المنهج البنيوي التكويني فيما تُسمى بمرحلة الفهم وهي المرحلة الخاصة بتحليل مُجمل البنى الداخلية الدالة للعمل وهي من أهم المراحل؛ لشموليتها بوصفها تبحث في جملة الخلفيات الإيديولوجية للمبدع بشتى صورها، وهي مرحلة تليها مرحلة الشرح، التي يتم فيها فتح هذه البنية بعناصرها على الإطار المرجعي والاجتماعي بما يكشف عن مستوى الوعي ورؤية العالم، وهذا الكشفُ يكون عن طريق البحث في المكون الباني (فعل الشخصية)، أو اللوغوس Logos، ويعني "الكلام والخطاب الذي يعمل على توجيه الإنسان توجيها سليمًا لإدراك الحقيقة"(١)، وتنتهي إلى تحليل مدلول هذا الكلام أو الخطاب؛ إذ تحاول البنية الدالة رصدَ كل مقومات العمل، وهياكله وتعمل على بنينتها من أجل الوصول لتصورٍ شامل لتوجه العمل ونظامه البنيوي، وذلك عن طريق الإحالة على البنية الاجتماعية المماثلة له واقعيًا.

وعلى الصعيد الإجرائي تنهض البنيوية التكوينية وفقا لمبدأ تفكيك النص إلى بنى ووحدات (داخلية وخارجية معًا)، وهذه الوحداتُ تتضمن دلالات أو مقولات؛ إذ لا يخلو نصٌ من رؤية الطبقة الاجتماعية للكاتب أو رؤية الجماعة التي ينتمي لها؛ حيث تُحيل البنيوية التكوينية إلى "الواقع والقاعدة معًا؛ لأنها تُحدد في آن واحد

[١]– عبد الغني بارة. المسارات الإبستمولوجية للبنيوية. فصول العدد ٤٥ صيف ٢٠٠٤م. ص: ٥٦

المحرك الحقيقي (الواقع)، والهدف الذي تصبو إليه هذه الشمولية التي هي المجتمع الإنساني"(١)

ومن منظور أجناسي ونوعي تسعى الروايةُ بوصفها الشكل الأدبي الدال، والمُعبر عن المجتمعات بكافة طبقاتها وتناقضاتها إلى دمج الفن بالعلم، والواقع بالخيال بوصفها ذلك "الفضاء الصراعي الذي تأخذ فيه عدة عناصر غير متجانسة شكلا معينا: شكلا يخص التناقضات على الرغم من أنها قائمة فيه. يبدأ العمل الأدبي من تناقضات الواقع ثم يُعيد تنظيم هذه التناقضات في سيرورة أدبية"(٢)

وفي هذا السياق لا يمكن قراءة الرواية من منطلق رؤية الكاتب الذاتية تجاه مجتمع ما، بل قراءة البنى الدلالية والذهنية لهذا المجتمع انطلاقًا من العلاقة العضوية الرابطة بينها والمجتمع الذي وُلدت فيه وانبثقت عنه من جهة، وتأكيدًا للمنزع الشكلي الذي ينهض على واقعية المكان، والبحث في دلالات هذه الواقعية من جهة ثانية وهو الأمرُ الذي يؤكد مدى إسهام البنية الدالة في تماسك النص الأدبي ووحدته.

وعلى ضَوء ما سبق يدرس المنهج البنيويُّ التكويني النصَ من خلال البنى الدلالية المتموضعة داخله، وما نقصده بالبنية الدلالية هنا "مجموعة من العناصر الأساسية التي تقوم فيما بينها شبكةٌ من العلاقات المتبادلة، بحيث إذا تغيّر أحدُها أو زال، تغيرت دلالة العناصر الأخرى بصورة موازية"(٣) بما يعني أن هذه البنى ترتبطُ ببنى المجتمع الذهنية الحاضنة لوعي الأفراد والشخصيات، وهي لا شك بنى أوسع من البنى الدالة، وهذا الارتباطُ يتم وفقَ علاقةٍ جدلية بين العناصر الداخلية،

---

[١]- جمال شحيد. في البنيوية التركيبية. ص: ٨١.

[٢]- إبراهيم عباس. الرواية المغاربية تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي. دار الرائد للكتاب. الجزائر ٢٠٠٥م. ص: ٤٨.

[٣]- الطاهر لبيب. سوسيولوجيا الغزل العذري. ترجمة: مصطفى المسناوي. دار الطليعة للطباعة والنشر. الدار البيضاء ١٩٨٨م. ص: ٣٣.

والخارجية؛ إذ لا يمكن دراسة البنى الدالة بمعزل عن البنى الذهنية التي تتجسد في وعي الطبقة الاجتماعية بل لا بُدَّ من "إقامة العلاقة بين البنيات الدلالية المنتزعة بواسطة القراءة التفسيرية وبين البنيات الذهنية المكونة للوعي الجماعي لفئة أو طبقة اجتماعية"(١)

دلالة العنوان والاستهلال النصي:

اختار فتحي غانم الجبلَ عنوانًا لروايته، وهو عنوانٌ مشحونٌ بالكثير من الحمولات الأيديولوجية، والدلالية بداية من البنية اللسانية، التي تستند على بعد واقعي، وجغرافي يعني ضمن ما يعني الشموخ، والإقامة، والطبع، والاجتماع فقد ورد في لسان العرب لابن منظور (ت ٧١٥هـ) أن "الجَبَل: اسمٌ لكل وَتِدٍ من أَوتاد الأَرض إِذا عَظُم وطال من الأَعلام والأَطواد، ... وجُبِل الإِنسانُ على هذا الأَمر أَي طُبِع عليه وجِبْلة الشيء: طبيعتُه وأَصلُه وما بُنِيَ عليه ... والجُبْل والجُبُلُّ والجِبْلُ، كل ذلك: الأُمَّة من الخَلْق والجماعة من الناس"(٢)

إن حضورَ عنوان الرواية بوصفه عنصرًا بنيويًا يؤدي وظيفةً بنيوية ودلالية وسيميائية تُشير إلى المكان، الذي يشغل مساحة كبيرة ومهمة في فضاء العمل، وهو ما حدا بالكاتب إلى إيراد بنية العنوان بشكلٍ متكرر في كل صفحة من صفحات الرواية وعبر البناء الداخلي لها مانحًا إياه مقصدية دلالية رمزية وسيميائية ذات بُعدٍ اجتماعي وطبقي؛ إذ يتحول العنوانُ إلى كيان اجتماعي يبقى حتى بعد رحيل الذوات الاجتماعية فيُخلد سيرتها، ويُبعد هذه الذوات عن الاختفاء، والنسيان، والانتهاء "**وروى لي بعض أصدقائي من الفنانين الذين ذهبوا إلى الأقصر وعادوا،**

---

[١]- محمد نديم خفشة. تأصيل النص (المنهج البنيوي لدى لوسيان جولدمان) مركز الإنماء الحضاري. سوريا ١٩٩٧م. ص: ١١

[٢]- ابن منظور. لسان العرب. الجزء الثالث. مادة. جبل

بعض ما كانوا يشاهدونه في الجبل، كُنتُ أسألهم عن العمدة وحسين علي أو مسعدة فيهزون رءوسهم ويقولون إنهم لا يعرفونهم"[١]

أما عن دلالة استخدام بنية الجبل فهو دالٌ يتصل بمدلوله السردي المكاني بوصفه "حقيقة معاشة يؤثر في البشر بقدر الذين يؤثرون فيه، فلا يوجد مكانٌ فارغٌ أو سلبي، ويحمل المكان في طياته قيما تُنتج من التنظيم المعماري كما تنتج من التوظيف الاجتماعي"(٢)؛ إذ يُعَدُّ نصًا مكانيًا يعكس منظومة إيديولوجية واجتماعية خاصة ويتمتع بملفوظات سردية تتخذ بُعدًا إبداعيا وفنيا متميزا؛ لذا اتخذه الكاتبُ طاقة فنية وجعل له دورا مهما في البنية التكوينية للسرد، وعلاقة هذه البنية بالواقع الخارجي.

ومما يُضيف إلى هذه الطاقة ثراءً فنيا علاقة الشخصيات بها، حيث يلتحم الموضوعي بالذاتي؛ "لأن الحفريات المكانية في الشخصية تُسهم في تحديد الملامح العامة لها والمختلفة، الشخصية الصحراوية الجبلية المدينية؛ حيث كل منهما يناصب الأخرى الاختلاف والتغاير في المستويات الجسدية والنفسية والاجتماعية"(٣)

وفي هذا السياق يدخل المكانُ (الجبل) بوصفة تيمة Theme إبداعية دوائرَ الصراع بوصفه فضاءً يقع بعيدا عن المتن الحضري أو المديني، وله طقوسٌ وعادات ذات مرجعية عتيقة، ولسكانه تكوينات تاريخية واجتماعية ذات خصوصية تنهض على الانغلاق والمقاومة ولا تقبل الاختراق، وهو ما يجعل منه مجتمعًا جامدًا، متقوقعًا في حدوده، يرفض التماهي مع غيره من المجتمعات.

---

[١]- فتحي غانم. الجبل (رواية). ص: ١٦٦.

[٢]- يوري لوتمان. مشكلة المكان الفني. ترجمة: سيزا قاسم. ط٢. عيون المقالات. الدار البيضاء. المغرب ١٩٨٨م. ص: ٧٣.

[٣]- عبدالقادر بن سالم. بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد. منشورات ضفاف الاختلاف. الرباط ٢٠١٣م. ص: ١٥٢.

وقد أسس الكاتبُ شخصياته الروائية في الرواية المدروسة وفقَ علاقات تكاملية، وقدمها تقديما حاول فيه إبراز أبعادها الاجتماعية، وهي أبعادٌ تنهض على التماسك والوعي؛ إذ حاول الكاتبُ خلق شخصيات أهل الجبل على قدر من الوعي، وهو وعي يؤدي دورا متمردا ضد التحضر والحداثة؛ إذ إن الرواية تتكون من طبقتين أو ضلعين: البداوة ويُمثلها أهل الجبل، والحضر ويمثله المهندس وهو في تقديمه لهاتين الطبقتين يُشكل دوالًا لغوية تحمل إيديولوجية تبرهن عن ميل الكاتب لإحدى الطبقتين.

تأسيسا على ما سبق يُشكِّل الانتماء للمكان بنية رئيسة ودالة في رواية الجبل، ويأخذ في الرواية أهمية كبرى، وذلك من خلال تأثيره الملحوظ على الشخصيات؛ إذ ينطق الجبل بواقع هذه الشخصيات الفاعلة مما يُكسبهم دلالة التجذر، التي يبنيها الاستقرار والألفة، وقد بسطت سلطة المكان صورتها انطلاقا من البنية التكوينية البارعة التي صورها الكاتبُ، والتي حولت الحياة الصعبة في هذا المكان إلى مظهر جذاب، وهو الأمرُ الذي يترتب عليه ظهور ملمح التوافق الاجتماعي بين أشخاص مجتمع الجبل؛ لارتباطهم بالمكان، الذي يُسهم في تحديد موقف موحد للجماعة ويعمل على تجذير انتماءات أفرادها بوصفه رباطًا لكافة الشخصيات، ومن ثم يتخذ المكان ملامح اجتماعية ونفسية عبر احتوائه لهذه الشخصيات؛ إذ هو بداية الوعي والمعرفة، ومفتاحها الأول، ويُصبح له وظيفتان:

_ معرفية خارجية (الصياغة النصية الاجتماعية)، وتتمثل في تقديم معطى فني ذي مستويات اجتماعية، وتاريخية، ونفسية.

_ بنيوية داخلية أو شكلية، وتتمثل في انبعاث وتكوين الكاتب لجملة الأحداث داخل الرواية بوصفها مسارًا بنيويا للسرد، ومحفزًا لغويًا يُسهم في تشكيل الشخصيات الروائية ويكشف عن سماتها الفاعلة، والمؤثرة.

وعلى نحو آخر تؤدي تفاصيلُ المكان المضاد دورًا في تطوير البنية التكوينية للسرد، وتبقى لها دلالتُها وانعكاس هذه الدلالة على الشخصيات "**وأحس حسين بسخرية تجتاح نفسه .. سخرية من كلامها، ومن ركوعها على ركبتيها، ومن جلسته على المقعد الوثير فانتفض واقفا، يريد الخروج من هذا البيت الغريب .. ما له والبيوت، وهو رجل يعيش في الكهوف .. إن البيوت تجري في داخلها أشياء تدعو للسخرية ... إنه يكره السقف والجدران والمقعد وهذه المائدة المكومة فوقها النقود وذلك السرير في الحجرة الأخرى .. إنه يريد أن يشفى مما في رأسه .. يريد أن يعود إلى الجبل**"[١]

تؤدي كلمة البيت –التي تَمَّ تكرارُها في الفقرة السابقة مرتين–دلالةً محددة بوصفها هيكلا مؤطرا، ومعلما محددا طوقه الكاتبُ بوصف موضوعي تمثيلا له بالانغلاق، الذي تنطوي فيه الشخصية على نفسها تبعًا لطبيعة المكان المُقيد لحريتها، وهنا تظهر التكوينية التي رصدها الكاتب بنيويا ومماثلتها بالواقع الخارجي تمثيلًا منفرًا، ومضادًا انطلاقا من أن سمات المكان الرئيسة تفرض نفسها فرضا على الشخصية.

واستكمالًا لما سبق وبمحاولة تطبيق عنصر البنية الدالة على رواية الجبل نجد أن الراوي يُقدّم لنا وفقا لهذه البنية **صورتين لطبقتين متباينتين أو عالمين مغايرين** يمثل العالم الأول المهندس المعماري، والثاني العمدة وبينهما صراع "**كانت**

[١]– فتحي غانم. الجبل . ص: ١٢٥، وما بعدها

المعركة بين المهندس وعمدة أهل الجبل مريرة طويلة وقف الخصمان فيها يناضلان في غير بأس. أحدهما تعلم الفن في فرنسا ويتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة، والثاني رجل عجوز ماكر، يحارب بالفطرة والحكمة التي ورثها عن أجداده الذين لم يغادروا الجبل أبدًا"[١]

وهذا الصراعُ تطرحه الرواية منذ صفحاتها الأولى، وهو صراعٌ يُجلي بُعدا طبقيا لا يخلو من الثورة على الواقع الفاسد، الذي يستند على السلطوية والاستبداد والنفعية: "**ولم يُظهر الساعي اهتماما كبيرا عندما عرف أنه أمام مفتش تحقيقات، وقال لي في هدوء أشبه بالبرود :**

_ حضرة المحقق مع سمو الأميرة ..

قالها لي، وكأنه هو أيضا مع سمو الأميرة وفي حمايتها

وأدركت في الحال، أن كل هيبتي قد تبخرت، فلا أحد في هذا المكان من كبير المفتشين إلى أصغر السعاة، سيهتم بمحقق مثلي، ولا حتى بوزير المعارف ولا رئيس الوزراء نفسه، ما دامت هناك صلة بينهم وبين سمو الأميرة .."[٢]

وعلى الرغم من أن موضوع رواية الجبل يطرح الصراعَ الإيديولوجي والطبقي إلا أن الوعي الفردي والذاتي لم يغب عن شخصيات الرواية بل كان حاضرا وهو ما حرر الرواية _إلى حد كبير وبصفة عامة_ من أسر نمطية الشخصيات وجاهزيتها في رواية الواقعية الاشتراكية ودخل بها إلى دوائر رصد خصوصية الشخصيات والصراع الإنساني والحياتي، وهو الأمر الذي يكفل تناول شخصيات الرواية بوصفها تجارب إنسانية وحياتية قبل أن تكون شخصيات فنية جاهزة ومؤدلجة.

وعلى ضَوء ما سبق يمكن قراءة العلاقة الثنائية التنافرية المتحكمة في منظور الرؤية الإبداعية والسردية، التي أفضت إلى التنافر بين البنيتين: الداخلية النصية، والخارجية الواقعية للطبقتين من خلال شخصية الراوي، فهو راو يندمج مع المبدع

---

[١]- فتحي غانم. الجبل. ص: ٤٠.

[٢]- المصدر السابق. ص: ٢٤.

ويحمل بطل العمل اسمه (فتحي غانم) بالإضافة إلى أنه ليس خاضعا لسلطة إحدى الطبقتين؛ ولذا فهو يتسامى عن الخضوع أو الإدانة أو الإكراه في مواقفه، وآرائه، وميوله.

ورغم ذلك يُظهر الراوي من خلال مكون الوعي انحيازًا واضحًا للطبقة التحتية العاملة ضد الطبقة الفوقية (ممثلة في الحكومة)، وهذا الانحيازُ يتبدى منذ الصفحات الأولى للرواية "**وشعرتُ براحة نفسية غامرة وأنا أستمع لكلام العامل، حطم الرجل بكلماته البسيطة المعبرة، تلك الرهبة التي شعرت بها عندما ران علينا الصمت، وهي تمر أمامنا في بهو فندق ونتربالاس في الليلة الماضية. كما حطم الرجل تلك القداسة التي أحاطت بالأميرة وهذا الجو من التعالي والكبرياء الذي ساد تفتيش الآثار لمجرد أن كبير المفتشين ذهب ليشرح لها آثار مدينة هابو**"[١]

إن تعاطف الكاتب مع جماعة الجبل يرجع للإيديولوجيا التي تبناها الكاتب، الذي هو الراوي والسارد نفسه وإظهار هذه الإيديولوجيا وحضورها؛ حيث جاءتْ على لسان الكاتب في أكثر من موضع من مواضع الرواية كما في مثل قوله: "**لو وكيل الوزارة شاف المذكرة دي ... سيقول عني شيوعي وسأفزع ولا شك من هذه التهمة لأني لا أريد أن يقبض علي وأقضي بقية حياتي في السجن**"(٢)، بما يشي بوجود دمج واضح وجلي بين النص الروائي، وحياة مبدعه الشخصية.

تحضر إيديولوجيا الكاتب ويحضر صوته أيضا منذ بداية العمل، وليس من العسير على الباحث تحديد وجهة هذه الإيديولوجيا، وهذا الصوت انطلاقا من أن العلاقة التي تربط بين العمل الأدبي والمجتمع علاقة جدلية، وفيها حتما يُعبر الكاتب عن جملة آرائه وما يدور في المجتمع حوله من أحداث، ووقائع "وهو ينطلق في رؤيته من استيعاب للموقف الاجتماعي، فيعزو الدافع الذي يحدوه إلى الكتابة بنوع من الصدمة، تتحول إلى رغبته في الفهم، ثم تضعه هذه الصدمة أمام أوضاع

[١]- فتحي غانم. ص: ٢٦، وما بعدها.

[٢]- المصدر السابق. ص: ٨٠.

طبقية مختلفة تفرض على الناس تصرفات في سلوكها الإنساني، وتُثير تفاعلا في داخله"(١) وهو ما يشي بأن الرؤية الفنية عند فتحي غانم رؤية واقعية واجتماعية وذاتية في آن واحد وذلك وفق إطار تفاعلي، وجدلي.

تؤكد ترسيمة البنية الذهنية لرواية الجبل حال الصراع القائم بين جماعة الجبل، والحكومة ممثلة في المهندس وهو ما أدى إلى بروز شخصيتين رئيستين هما العمدة، والمهندس، وهاتان الشخصيتان يمثلان عالمين مختلفين (الجبل، والمدينة الجديدة) كما هو موضح بالترسيمة الآتية:

وعلى الصعيد الإجرائي يُسلط الكاتبُ الضوءَ على نحو خاص على شخصية العمدة ودوره في صناعة الأحداث لإضفاء هالة إبداعية _إن صحت التسمية وجازت النسبة_ وهو الأمر الذي أدى وفقا للوعي البنيوي إلى أن يُمثل العمدة دور البطل الإيجابي، وهو البطلُ الذي يتبنى مجموعة من القيم، ويُريد تأكيدها واقعيًا، وهذا البطل ظهرَ مع الرواية الواقعية مطلع أو بداية القرن العشرين، وهو بطلٌ يحاول زحزحة الطبقة المتسلطة (الحكومة) وإنصاف طبقة الجبل، التي صورها الكاتب بوصفها طبقة مغلوبة ومضطهدة، وهو أيضا بطلٌ يتجاوز الآني والواقعي لما هو ممكنٌ ومُتوقع؛ ولذا نجد الكاتب يؤكد دوما على استمرارية الصراع الجدلي بين البنية الذهنية للعمدة، وكافة الأطر المعارضة لهذه البنية وكذلك التحفيز الذي

١- محمد صالح الشنطي. الرواية العربية في مصر (من عام ١٩٥٢ : ١٩٦٧م). رسالة ماجستير مخطوطة. قسم اللغة العربية. كلية الآداب. جامعة القاهرة ١٩٨٣م. ص : ٢٩

يبنيه الكاتب ويكونه من أجل أن يحتفظ العمدة بمحورية بطولته طوال الرواية، حتى وإن كانت هذه البطولة دون الوعي الممكن، أو مناهضة له "**وفقد العمدة سيطرته على أهل الجبل، كان يجلس بينهم كالأبله، أو كالطفل الصغير وهو يبكي، ومن حوله النسوة يندبن، وهو لا يقوى إلا على ترديد جملة واحدة "مريم استراحت"**[١]

ووفقًا لرؤية الكاتب الإيديولوجية تحضر معارضته للإيديولوجيا الدينية بوصفها ترتكز على بُعدٍ سلطوي، وهذا الأمرُ يتبدى عبر تشويه الراوي لشخصية الشيخ طلباوي؛ إذ قدَّم الراوي عنه نسقا بنيويا مُنفرا وبخاصة من منظور المقربين منه اجتماعيا، ووضع الراوي بينه والمقربين منه من أهل جماعته حاجزا نفسيا ومسافة واضحة بل بينه وأخته بوصفهما نموذجين مغايرين للوعي كما جاء على لسان الراوي "**نفس الطموح والجرأة عند الاثنين الطموح الذي دفع الشيخ طلباوي إلى الفرار من الجبل وهو صبيٌ صغير، ليذهب إلى أسيوط حيث يتعلم ويُصبح موظفا في الحكومة يتكبر على أهله، ويتنكر لحياة الجبل، ويريد أن يفرض سيطرته على شقيقته ليأخذها معه إلى أسيوط، هو نفسه الطموح الذي دفع بمسعدة في طريق مناقض تماما للطريق الذي سار فيه أخوها .. فتمسكت بالجبل، ورفضت عروض شقيقها، وتحدته حتى لا تذهب إلى أسيوط"**[٢]

ولعل موقف الراوي من السلطة الدينية يرجع لتنامي المد الاشتراكي مع بداية القرن العشرين ومعتنقيه من الشيوعيين المناهضين أو المعارضين للسلطة الدينية، أو الدين الرسمي، ومن ثم يظهر الأخيرُ في الرواية مفقودًا، بينما يبدو التدين الشعبي واضحًا وجليا، ويتمثل هذا الوضوح في عدد من الممارسات الطقوسية مثل طقوس استخراج الكنز، والأحلام، والسحر، والجن، والحلف ... وغيرها كما في مثل الحوار الذي دار بين الراوي (فتحي غانم)، وعمدة الجبل "**ونظرتُ إليه مستسلما في غير فهم، ومد أصبع يده اليسرى نحو عيني وهتف:**

---

[١]- فتحي غانم. الجبل. ص: ١٠٥

[٢]- المصدر السابق. ص: ١٤٨

_ وعينيك ..

كنت أرتعد في غباء مطبق، فكرر من جديد:

_ جول معايا .. وعيني.

_ وعيني ..

وهبط أصبعه إلى فمي وهتف: وخشمك ..

_ وخشمي ..

وشدد القبض على يدي وقال: ودراعك ..

وقلت : ودراعي

وأشار الرجل إلى رجلي وهتف : ورجليك

_ ورجلي ..

وزادت حدة انفعاله وهو يقول: إن شاء الله .. يصيبني بالعمى والخرس والشلل .. وترددتُ .. فصرخ فيَّ، فكررت بسرعة وراءه: إن شاء الله يصيبني بالعمى والخرس والشلل ..

وقال في حدة: إن كنت كذاب والا من رجال المهندس .."[١]

واستكمالًا لفكرة رفض كل ما هو سلطوي يتجلى رفضُ الراوي للمرجعية السياسية، التي تقترن بإدارة سياسية وحكومية متسلطة تفرض إطارا مؤسساتيا مصمتا على مجتمع يعاني من فكرة الالتزام مما يُسهم في إقصاء إرادة هذا المجتمع، وتفعيل إرادة السلطة، وهو الأمرُ الذي نحى بالتشكيل السردي إلى تشويه صورة السلطة ممثلة في الحكومة وقتئذ "**إن صورة الحكومة مرتبطة في ذهن العمدة بلقائه بالأميرة السكرانة في القرية النموذجية. إنه لم يفلح في التفاهم مع الأميرة أخت الملك. الحكومة هي البوليس الذي يريد انتزاعهم قسرا من كهوفهم ليلقي**

[١]- المصدر السابق. ص: ٥٩، وعن الحلم والطقوس الشعبية يُنظر أيضا الرواية نفسها. ص: ١٥٥، وما بعدها .

بهم في بيوت لها قباب كالمقابر .. الحكومة ليست حكومتهم، إنها لا تفكر إلا في السيطرة عليهم"[١]

وفي السياق ذاته يربط الكاتبُ بين رفض كل ما هو سلطوي، وطبيعة بنية المجتمع الذي يُمثله الكاتب (إبداعيًا، واجتماعيًا) انطلاقًا من أن مجتمع البداوة ينهض على مفهوم "التغالب"، وهو الوصفُ العام، الذي قدَّمه علي الورَدي بصفة عامة عن هذا المجتمع "فالفرد البدوي يريد أن يغلب بقوة قبيلته أولا وبقوته الشخصية ثانيا، وبمروءته أي بتفضله على الغير ثالثا"[٢] حيث تتملك هذا المجتمع رغبة السيطرة والغلبة في كل شيء، ومن ثم يتمرد هذا المجتمعُ ومن ينتسبون له على أي سلطات أخرى، ومنها سلطة الدولة، وهو الأمرُ الذي يجعلهم في صدام دائم، وعلاقتهم غير مستقرة؛ إذ هي "علاقة مضطربة تتبدل وتتغير تبعًا لقوة الدولة وضعفها وانطلاقا من المصالح الخاصة للقبيلة"(٣)

وغير بعيدٍ عن هذا السياق يتناول الكاتبُ دالَ العمل بوصفه دالا منبوذا بالنسبة لمجتمع الجبل؛ ذلك أن مجتمع الجبل و"البدو يحتقرون المهن كل الاحتقار ... وكل من يكسب رزقه بكد يده أو عرق جبينه. إنهم يعدّون ذلك دليلًا على الجبن والضعف"(٤)، ومن ثَمَّ يبحث أفرادُ هذا المجتمع عن وسائل أخرى للعيش منها النهب، والسطو، والاستحواذ للحصول على المال بأيسر السبل، والوسائل، وأسهلها.

وعلى ضَوء البنى الدلالية الكبرى السابقة تنضام بنى دلالية أخرى، وهذه البنى تتضافر في تبليغ رؤية العالم على لسان الراوي ومن هذه البنى الولاء للمكان ومسايرة قيم الطبقة الاجتماعية انطلاقًا من أن مجتمع الجبل يُعَدُّ مجتمعًا محافظًا،

---

[١]- المصدر السابق. ص: ١٥٦.

٢. علي الورَدي. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي (محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضَوء علم الاجتماع الحديث) د.ت.د.ب.د.ن. ص: ٣٨.

[٣]- سعيد الغانمي. العصبية والحكمة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ٢٠٠٦م. ص: ١٤٩

[٤]- علي الورَدي. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. ص: ٦٢.

وهو مجتمعٌ يتشبث بعاداته وقيمه وتقاليده؛ نظرًا لطبيعته الجغرافية التي تفرض عليه سمة الانطوائية والانغلاق، ومن ثم فإن من يخرج على هذا القيم يُعَدُّ شخصًا منبوذًا وهو ما حدث مع شخصية الشيخ طلباوي "ومرة أخرى لمحت نظرات الاحتقار تشع من عيني العمدة وتكاد تحرق جسد الشيخ طلباوي"(١)

وفيما عدا شخصية الشيخ طلباوي تؤكد ترسيمة البنية الذهنية لشخصيات الرواية أو شخصيات مجتمع الجبل على وحدة جماعة الجبل كلها تحت غطاء أبوي هو شخصية العمدة، الذي يعد الوالد أو الأب الروحي لجماعة الجبل.

والمتمعن في جملة البنى الدالة الواردة في الرواية يلحظ بروز البنية الدالة للمادية الرأسمالية عن طريق رأس المال، وهو الدالُ الذي يؤدي إلى التشيّؤ Reification وذلك من خلال بروز فعل الرشوة والاختلاس في المجتمع الحضري، وهو الفعل الذي أدرجه السيد ياسين في كتابه "علم اجتماع الأدب" ضمن ما يُسمى بـ"الثقافة الإجرامية Criminal Culture" مقررا أنها "ثقافة خاصة بقطاع من المجتمع الحضري، لها قيمها الثابتة التي يتوارثها الموظفون جيلا بعد جيل، تحدد لهم كيفية أخذ الرشوة من أفراد الجمهور"(٢)، وهو السبب الذي يبني عليه الراوي سبب التحقيق في الشكوى المقدمة إليه **"إذ مضت الشكوى تعدد أنواعا من الاختلاسات والسرقات في أخشاب وطوب وأدوات البناء في القرية النموذجية"**(٣)

وعلى صعيد متصل تكشف الروايةُ عن دلالة أخرى تُضاف للدلالات السابقة، وهي دلالة الرسمي أو السلطوي والشعبي، وهي الدلالة التي جاءت نتاج العلاقة المضطربة والمتوترة لمجتمع البدو والجبل بالسلطة منذ إنشاء محمد علي باشا

---

[١]- فتحي غانم. الجبل . ص: ٨٧

[٢]- السيد ياسين.التحليل الاجتماعي للأدب.مكتبة مدبولي. ط٣.القاهرة.د.ت.ص: ١٥٤، وما يلحظه الباحثُ على كتاب السيد ياسين اضطراب التركيب، وعدم سلامة اللغة بشكل ملحوظ على امتداد الكتاب على الرغم من أن الكتاب يُعَدُّ من أوائل الكتب، التي تحدثت عن علم اجتماع الأدب.

[٣]- فتحي غانم. الجبل . ص: ١١

(١٧٦٩ : ١٨٤٩م) لدولة مصر الحديثة، وهو الأمرُ الذي حدا بمحمد علي لاستبعادهم من الجيش فيما عُرف تاريخيًا بـ"امتياز العُربان".

سعى فتحي غانم في ضوء العلاقة السابقة إلى تقديم مواقف اجتماعية ضمن سياق سياسي سلطوي، ونحا منحى مغايرا في التعبير عن القضية المطروحة من خلال استنهاض وعي الكاتب بفكرة تكوين بطل شعبي أسطوري(*) (مُمثلًا في العمدة) في مقابل السلطوي الرسمي (ممثلا في الأميرة والملك) رغم أن لغة التفاهم بين الطرفين منقطعة وغير متصلة "**ومدت يدها تداعب عمامة العمدة .. فتراجع العمدة برأسه ونبهه عبث الأميرة بغطاء رأسه إلى وقاره وكرامته فتنحنح وقال مواجها الأميرة بصوت جرئ:**

_ اسمعي يا أميرة .. جولي للملك .. احنا موش أثارات .. احنا منتنجلش من الجبل .. احنا كبرنا وبقينا زي السجر، وإن انتجلنا نموت ..

ولم تفهم الأميرة سوى كلمة الملك"[١]

وأخيرًا فإن دخول البنى الدالة بثنائياتها المختلفة دوائرَ الصراع في الرواية أو خروجها منه يُنتج ما يُسمى "الفكرة الذات _على حد تعبير ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin (١٨٩٥ : ١٩٧٥م)_"، وهي الفكرةُ التي يتبناها البطل الراوي في العمل، ويؤسس من خلالها لرؤية العالم، وأشكال الوعي.

رؤية العالم وأشكال الوعي:

من منظور المنهجية البنيوية التكوينية ووفقا لمرتكزاتها وآلياتها الإجرائية الرئيسة يُشكل رؤية العالم World View عنصرا أساسيًا، ومفهوما مركزيا في المنهجية البنيوية التكوينية، وهو مفهومٌ يتكون في دراسة النص الأدبي من تضافر

---

* حول فكرة أسطرة شخصية العمدة يُراجع (مثلًا تطبيقيًا) ما جاء على لسان الراوي في قوله: "**ورأت الأميرة صورة العمدة في جسمه الطويل الأسطوري وهو يتقدم منها مُحاطا بالمهندس وبعض العساكر**" المصدر السابق. ص: ٥٧.

[١]- المصدر السابق. ص: ٧٦.

الوعيين القائم، والممكن، وقد اتخذ جولدمان هذا المفهومَ مجالاً لسبر أغوار النص الأدبي من خلال جملة من عناصر النص ومكوناته؛ حيث يبحث عن "أثر النصوص الأدبية في التنظيم البنيوي الذي يستوعب المفاهيم العقلية المتماثلة لدى الأفراد التي تجتمع بدورها لتتمخض عن رؤية موحدة للعالم أو بمعنى آخر إنه يبحث في العمل عن بنى دالة بسيطة تسمح بتأويل العمل كاملًا ثم يُحدد علاقات تلك البنى الدالة بالبنى العقلية التي تتوافق مع الحد الأقصى الممكن لوعي طبقة اجتماعية ... تفسر رؤيتها للعالم"(١) ؛ انطلاقا من أن لوسيان جولدمان يتعامل مع هذه الرؤية بـ"اعتبارها بنية لا تُفهم إلا في تحقيقها لوظيفتها"(٢)

تنهضُ مقولة رؤية العالم على ركيزة البنية الذهنية Structure mentale بوصفها ظاهرة اجتماعية لا فردية، وهذه الظاهرة وردت في الفكر الهيجلي _نسبة إلى هيجل G.W.F.Hegel (١٧٧٠ : ١٨٣١م)_، ووردت كذلك في كتابات جورج لوكاش، الذي يقرر أن "أي وصف لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الأدبي للعالم، لا يمكن أن يكون تامًا، فالنظرةُ إلى العالم هي الشكلُ الأرقى من الوعي، فالكاتبُ يُهمل العنصرَ الهام من الشخص القائم في ذهنه، حين يهمل النظرة إلى العالم. إن النظرة إلى العالم هي تجربةٌ شخصيةٌ عميقة يعيشها الفرد، وهي أرقى تعبير يميز ماهيته الداخلية، وهي تعكس بذات الوقت مسائل العصر الهامة عكسا بليغا"(٣)

ترتبط رؤيةُ العالم بالتصور الذهني للشخصية في العمل؛ حيث إن تتبع رؤية العالم وفقًا لوجهة نظر طبقة اجتماعية معينة يُنبئ عن وعي هذه الطبقة وشخصياتها، التي تنوب إيديولوجيا عن المؤلف أو المبدع الفردي حتى وإن كان

---

[١]- وليام بويلوور : مدخل في علم اجتماع الأدب . ترجمة: إبراهيم خليل. ص: ٧٤.

[٢]- جابر عصفور. قراءة في لوسيان جولدمان عن البنيوية التوليدية، مجلة فصول يناير سنة ١٩٨١م، ص: ٨٥، وما بعدها.

[٣]- جورج لوكاش. دراسات في الواقعية. ترجمة: نايف بلّوز. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط٣. بيروت ١٩٨٥م. ص: ٢٥.

المؤلفُ هو البطل نفسه كما هو الحال في هذه الرواية محل الدراسة فالشخصية بمفردها "كيانٌ فارغ، أي "بياض دلالي" لا قيمة لها إلا من خلال انتظامها داخل نسقٍ هو مصدرُ الدلالات فيها، وهو منطلق تلقيها أيضًا"(١)

وعلى سبيل التحديد يذهب جولدمان إلى أن العنصرَ الرئيسَ والأداة الفاعلة في دراسة النص الأدبي تتمثل في أن كُلاً من الأدب والفلسفة تعبيرٌ عن رؤية العالم، ويحدد هذه الرؤية بأنها "المجموع من التطلعات، والمشاعر، والأفكار التي تجمع بين أعضاء المجموعة الواحدة، وغالبا الطبقة الاجتماعية الواحدة وتعارضها مع المجموعات الأخرى"(٢)، ويتشكل مفهومها إجرائيا "بوصفها أداة عمل إدراكية ضرورية لفهم التعبيرات المباشرة لفكر الأفراد، وتظهر أهميتُها وواقعيتها حتى على المستوى التجريبي عندما نتجاوز فكر كاتب واحد وأعماله"(٣) ويعني ذلك أن رؤية العالم مفهومٌ جماعي يتجاوز النزوع الذاتي والفرداني، ويتطلع لتمثيل السياق الفكري والاجتماعي العام ومن ثم يتجاوز الكاتب ذاته كي يعبر عن الطبقة الاجتماعية أو الجماعة التي ينتمي لها؛ "ولذلك يستخدم جولدمان المصطلح باعتباره مصطلحا يلائم ذلك الكل المركب من أفكار ومطامح ومشاعر، تصل ما بين أفراد مجموعة اجتماعية (تأخذ شكل طبقة في أغلب الأحوال) وتفصل ما بينهم وبين غيرهم من أفراد المجموعات الاجتماعية الأخرى"(٤)، ولعل هذه الفكرة تُمثل خلاصة الفلسفة الهيجيلية الجدلية، التي تؤكد "أن الفكر بصفة عامة لا يتقدم في خط مستقيم إلا إذا انطلق من الجزء إلى الكل ومن الكل إلى الجزء أي إلا إذا أُدرج في محيطه المحتضن Son nilieu ambiant وتَمَّ النظر إليه في علاقته به"(٥)

---

[١]- فيليب هامون. سميولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة: سعيد بنكراد. تقديم: عبد الفتاح كيليطو. دار الحوار للنشر والتوزيع. سورية ٢٠١٣م. ص : ١٣.

[٢]- لوسيان جولدمان. الإله الخفي. ص: ٤٦.

[٣]- المرجع السابق. ص: ٤٢.

[٤]- نقلا عن: جابر عصفور. نظريات معاصرة. ص: ١١٣.

[٥]- لوسيان جولدمان. العلوم الإنسانية والفلسفة. ص: ١٧.

ورغم أن جولدمان لم يُقدِّم تعريفًا واضحًا ومحددًا للإيديولوجيا شأن تحديده لمصطلح رؤية العالم، فإن الأخيرَ يُعَدُّ أكثر رحابة ومرونة "ورغم كل المحاولات للتمييز بين الإيديولوجيا ورؤية العالم، فإنه لا يمكن الإدعاء بأن الرؤية للعالم هي تصورٌ كاملٌ للواقع الذي ظهرت فيه؛ لأنها مهما بلغت قدرتها على استيعاب مختلف التصورات المتعايشة في المجتمع، فإن قيمتها في نهاية الأمر ستبقى منحصرة في التصور الحضاري العام للمجتمع الذي نشأت فيه وهي لذلك تبقى ذات طابع نسبي"(١)

أما على الصعيد الإجرائي والتطبيقي فإن المتتبع لرؤية العالم في رواية الجبل يجدها تتمثل في تطلع جماعة الجبل لواقع أفضل، ومن ثم نجد الكثير من مشاهد الرواية تتمثل في العثور على الكنز، الذي يُمثل حلم الخلاص لهذه الجماعة أو الطبقة، وهو الحلم أو الأمل، الذي يراودهم ويسعون إلى تحقيقه حتى النهاية "**ماذا أمام أهل الجبل غير الكحت، إنهم ما كادوا يبتعدون عن الجبل حتى اتجهوا إلى مقاول يسرق منهم النقود ..**

وهناك القرية الجديدة، تنتظرهم بقبابها وكأنها قبورٌ جديدة سيدفنون فيها أحياء .. لا عمل لهم فيها، ولا أرض يزرعونها، ولا مصدر رزق يكسبون منه قوتهم..

لا بد أن يبقوا في الجبل .. والبقاء في الجبل معناه استمرار الكحت .. الكحت هو الخيال الوحيد .. الأمل الوحيد .. لكل من يسكن الجبل .. "(٢)

تنبثق رؤية العالم في الرواية أيضا من خلال التجربة، وذلك في ارتباطها بوقائع حدثت منذ زمن مضى، عن طريق فعل التذكر، وهو الفعل الذي يخلق موقفا من الآني ويصيغ رؤية للمستقبل "**وما كاد يتقدم بضع خطوات، حتى رأى أمامه سدا من الصخر..إنه نهاية السرداب ..وتبين حسين في تلك اللحظة الخاطفة كل**

١- حميد لحمداني. النقد الروائي والإيديولوجيا. ص: ٣٢

٢- فتحي غانم. الجبل. ص: ١٠٩

شيء..وقعت عليه كل ذكرياته الضائعة منه، بثقلها الكامل..انهارت عليه كصخرة هائلة محطمة..رأى حسين العمدة... ورأى نهاية السرداب، وأدرك المهمة التي جاء من أجلها..وتذكر مريم وأباه والخوجاية وأخت الشيخ طلباوي والبنايات والمقاول والمهندس، تذكر صباه البعيد ونداءات آتية إليه، والسواح..لم يبق شيء لم يتذكره ولم يحتدم في رأسه.."(١)، وقد صاغ هذا التذكر بوصفه واقعا ماضويا وتاريخيا، رؤية الكاتب لما ستؤول إليه الوقائع والأحداث مستقبلا ومن ثم تُصبح البنية التكوينية نسجا جديدا لحدث أو لواقع قديم، وهو الأمرُ الذي يؤكد أن رؤية العالم هي موقفٌ يتولد عن تجربة محددة بزمن ماضي، ولكن الكاتب تبعا لفعل التذكر يُعيد نسجها وإطلاقها ليُكّون بها رؤية مستقبلية كلية وشاملة ومنسجمة.

تأسيسًا على ما سبق تُعَدُّ رؤية العالم نقطة الاتصال التي تتجلى فيها العلاقةُ التكوينية بين الأعمال الأدبية، ومبدعيها من ناحية، والواقع الاجتماعي ومستقبله من ناحية أخرى أي أن العمل الأدبي ما هو إلا رؤية للعالم، وهذه الرؤية هي نتاجُ صياغة الكاتب لوعي الزمرة أو الجماعة في قوالب أو نصوص أدبية، أو هي وبتعبير آخر الرؤية الفلسفية، التي تنظر من خلالها الطبقة أو المجموعة الاجتماعية إلى الوجود والعالم من حولها، وهذه الرؤية حتما ستكون مغايرة ومخالفة لرؤية الطبقات الأخرى.

هذا ويُقرر أصحابُ المنهج البنيويّ التكويني أن أداةَ الوصولِ إلى الأيديولوجي في العمل الأدبي لا تتم بتحليل البنية الشكلية دون الوقوف عند حدود الشكل كما هو الشأن لدى عددٍ من المناهج الأخرى بل يتجاوزه إلى محاولة فهم الأيديولوجي، والاجتماعي، وكذا يؤكد أن العملَ الأدبيَّ ليس عملًا فرديًا بل هو نتاجُ وعي الجماعة، والواقع بوصف الأدب شكلًا رئيسًا من أشكال رؤية الواقع، والوعي الجمالي به من حيث إن الأدبَ يُحيل على الواقع مباشرة، وهو الأمرُ الذي يؤكده لوسيان جولدمان حينما يقرر أن "صدور الفن والأدب عن بنى ذهنية ما وراء فردية

١- فتحي غانم. الجبل. ص: ١٣٠

تنتمي إلى مجموعة خاصة، وهي تتشكلُ على نحو دائم، وتنحَّلُ في مجموعات اجتماعية حين تعدِّل صورتها عن العالم كاستجابة لتغيِّر الواقع أمامها، وتبقى هذه الصور الذهنية معروفة على نحو رديء، ونصف مدركة في شعور الممثلين الاجتماعيين؛ غير أن الكُتّاب العظام هم القادرون على بلورة تلك الصور في شكل واضح متماسك"(١)

وقد حاول جولدمان تطبيق هذا التصور، وتلك الرؤية على أعمال باسكال، ومسرح راسين حيث خلص في كتابه "الإله الخفي The hidden God" إلى أن الأدبَ يُعَدُّ وسيلة اتصال الإنسان مع غيره، ومضمونه تحديدًا هو رؤيةُ العالم، وبِناءً عليه فإن أيَّ نص إبداعي "لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الأدبي للعالم لا يمكن أن يكون تامًا؛ إن النظرة إلى العالم هي تجربة عميقة يعيشها الفرد، وهي أرقى تعبير يُميز ماهيته الداخلية"(٢)

وقمينٌ بالإشارة هنا أن رؤية العالم لم تظهر في الرواية المدروسة بوصفها نزعة فردية أو ذاتية بل انحازت رؤية البطل/ الراوي إلى جماعة الجبل وذلك من خلال مجموع البنى الدالة في الرواية،وبذلك لم تعد رؤية العالم في رواية الجبل واقعة ذاتية أو فردية بل هي موقف جمعي ينتسب إلى مجموعة أو طبقة اجتماعية،وهذه الطبقة تمثلت في الراوي الذي تماهت رؤيته مع شخصيات الجبل وعلى رأسهم العمدة.

ولعل في اتحاد رؤية الكاتب والراوي مع رؤية جماعة الجبل ما يؤكد مبدأ **الكلية أو الشمولية Totality** انطلاقًا من أن "الكاتب ليس إلا فردًا يندغمُ ضمنَ مجموعة يُشاطرها وتُشاطره نفس القضايا ونفس الحلول ولذلك فهو لا يُعبر عن فرديته مؤسسًا بذلك حريته الخاصة، بل يُعبر في العمق عن ذات فوق فردية تمتلك بنية مقولية متجانسة ... فكُلُّ عملٍ أدبي أو فني متميز هو في العمق تعبيرٌ

١- رامان سلدان. النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة: جابر عصفور. دار قباء. القاهرة ١٩٩٨م. ص: ٤٠

٢- جورج لوكاش. دراسات في الواقعية الاشتراكية. ص: ٢٥.

عن هذه الرؤية وتجسيدٌ لها شريطة أن يُنظر إلى هذا العمل في كليته ما دام هيغل يؤكد أن "الحقيقي هو الكل""(١)، وهو المبدأ الذي يبتعد بالنص أو العمل عن فكرة الانعكاسية الحتمية والآلية، ويقترب من المنحى الكلي، والشمولي.

وتتحقق هذه الكلية والشمولية في رواية الجبل من خلال سير الرواية في قالبين أو مسارين متداخلين: بنائي، واجتماعي، الأول من حيث تتابع الشخصيات والأحداث، والثاني من حيث تتابع الوقائع الاجتماعية والصراع الإيديولوجي والرؤية الاجتماعية، وهي الرؤية التي جاءت متطابقة مع إيديولوجيا الكاتب والراوي وكذلك تطابقت مع رؤية الطبقة الاجتماعية التي يُعبر عنها: "**وسمعت بعد ذلك عن أهل الجبل. قرأت يومًا في الصحف نبأ عدول الحكومة عن مشروع القرية النموذجية وإسكان الأهالي فيها**

لقد انتصروا ..

وأثبتوا في انتصارهم، فشلَ كل مشروع يقومُ من أجل أسباب لا صلة لها بالإصلاح الحقيقي .. ما أكثر المشروعات البراقة التي تتخذ قناع الإصلاح ثم يتضح أنها قامت من أجل مصلحة شخصية، أو مجد شخصي، أو فكرة خاطئة، أو محاولة ساذجة لتقليد أوربا وأميركا"(٢)

وكما هو واضحٌ في الفقرة السابقة تنحازُ رؤية الراوي الجماعية لأهل الجبل ضد رؤية التحديث الفردية الخاصة والمبنية على مصالح شخصية ضيقة، وهي الرؤية التي تتكرر على لسان الراوي في أكثر من موضع من مواضع الرواية "**وبدأت السخرية التي أشعر بها تتحول إلى قرف وغثيان. كل كلام أسمعه هنا ينتهي إلى المصلحة الشخصية. عبدالصمد يبحث عن الربح من وراء فندق، والموظف السمين يبحث عن مشروع جديد يتباهى به أمام الوزير والمهندس**

---

[١] لوسيان جولدمان. العلوم الإنسانية والفلسفة. ص: ١١، و١٧.

[٢]– فتحي غانم. الجبل . ص: ١٦٦.

حريص على سمعته العالمية، لا أحد يذكر أهل الجبل، إنهم لا يفكرون فيهم على الإطلاق"[١]

وفي ظل واقع يمور بالمصلحة الشخصية والمنفعة الذاتية ويضج بهما نجد الراوي يوجه سهام النقد لهذا الواقع ومن يمثلونه "**ذهب الكلام الأجوف الذي كانوا يتشدقون به عن تحسين حالة الفقراء الذين يعيشون في الكهوف. وظهرت الأسباب الحقيقية الكامنة وراء المشروع .. ربح شخصي، أو مجد شخصي، ومن يدري ماذا ستأتي به الأيام، من أفكار أخرى لرجال ذوي أطماع جديدة في هذه القرية"**[٢]

تتجه الفقرة السابقة في الرواية إلى تمثيل النزعة البرجوازية وحضورها بشكل جلي، وهي النزعة التي أكدها لوكاتش حينما قرر أن "الرواية البرجوازية هي صراعٌ لا هوادة فيه ضد كل شكل من أشكال الاضطهاد والاستغلال في المجتمع الرأسمالي"(٣)

إن الراوي الذي يُشاهد ما يدور أمامه فيُحيل هذه المشاهدة إلى وعي شمولي يمثل رؤيته للعالم وهي رؤية جدلية فيما بين مجتمع الجبل ومجتمع المدينة وكلاهما يظهر وفق الرؤية النفعية والمادية؛ ولذا اتكأ الكاتب على هذه الرؤية بوصفها موضوعة بنيوية تكوينية للفكر الذي ينهض على الفكر الاقتصادي والنفعي "فالطبقات الاجتماعية التي يربط بينها أساسٌ اقتصادي، تتمتع إلى يومنا هذا بأهمية أساسية في الحياة الأيديولوجية للناس، فقط لأنهم مضطرون لتكريس أكبر جزء من اهتماماتهم ونشاطاتهم لضمان وجودهم، أو عندما يتصل الأمر بطبقات مسيطرة للحفاظ على امتيازاتهم، وإدارة ثرواتهم ومضاعفتها"(٤)

---

[١]- المصدر السابق. ص: ١٦١، وما بعدها.

[٢]- المصدر السابق. ص: ١٦٢.

[٣]- جورج لوكاتش.الرواية. ترجمة: مرزاق بقطاش. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر د.ت. ص:٩٦

[٤]- لوسيان جولدمان. الإله الخفي. ترجمة: زبيدة القاضي. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. وزارة الثقافة. دمشق ٢٠١٠م. ص: ٤٥ .

ولعل ما يميز الرؤية المادية والنفعية هو اهتمامها بالفرد لا الجماعة؛ إذ إن ما يلحظه الباحثُ أن شخصية مهندس القرية الجديدة وبشكل مفرد تقع تحت سلطة المؤلف والراوي على أن هذه الفردية حتما تنضوي تحت فكر الطبقة الاجتماعية "إذ لا يوجد تقريبا فعل واحد إنساني يقوم به فرد منعزل. فذات الفعل الإنساني مجموعة هي (النحن) _على حد تعبير لوسيان جولدمان_"(١)، وهذه الفئة تتمثل هنا في الحكومة بوصف المهندس ممثلا لها، وليس مستبعدا أن يمارس التكوين الاجتماعي لهذه الفئة تمركزا ذاتيا، وانحيازا نحو مصالحه الذاتية.

وعلى جانب آخر فإن رؤية العالم لا تنحصر في جملة الإيديولوجيات والأفكار العلمية والموضوعية، وإنما تشمل أيضا المشاعر الإنسانية والأحاسيس والعواطف الموجودة لدى طبقة اجتماعية، وهو ما اصطلح جولدمان على تسميته بـ"وعي المجموعة"(٢) كما في اتفاق العمدة مع الخوجاية على تبادل الآثار "**ورضي العمدة بهذا الاتفاق، ولكنه سخر من مساعدة علماء الآثار .. هؤلاء العلماء لا يعرفون شيئا عن المقابر الحقيقية، إنهم يفتحون الكتب ويقرأونها، ثم يحددون مواقع لا يمكن أن يجدوا فيها مقابر .. أهل الجبل يحسون بغريزتهم دون أن يفتحوا كتابا أو يقرأوا صفحة واحدة**"(٣)

وعلى صعيد متصل تأخذ نقطةُ الاتصالِ أو رؤية العالم شكلين متحدين:

أولهما_ **الوعي الفعلي** القائم Real Consciousness (ما عشناه في الماضي أو ما نعيشه في الحاضر).

ثانيهما_ **الوعي الممكن** المستقبلي Possible Consciousness (ما نأمله مستقبلا ونستشرفه).

١- لوسيان جولدمان. الإله الخفي. ص: ٣٩.

٢- المرجع السابق. ص: ٤٢.

٣- فتحي غانم. الجبل . ص: ٩٩.

وما يُقصد بالوعي هنا "مظهرٌ معين لكل سلوك بشري يستتبع تقسيم العمل ...؛ إذ إن كل واقعة اجتماعية هي في بعض جوانبها واقعة وعي، وكُلُّ وعي تمثيل مناسب لقطاع معين من الواقع على وجه تقريبي"(١)، وذلك عن طريق ربط هذا الوعي بالواقع، وهذا الربط يتمثل في مقدرة الأديب على تقديم هذا الوعي في إنتاج أدبي يُماثل الواقع.

وانطلاقًا من مفهوم الوعي السابق تحاول كُلُّ جماعةٍ اجتماعية فهمَ الواقع القائم انطلاقًا من تصوراتها الراسخة ففكرة الوعي القائم هي "مجموع التصورات التي تملكها جماعة ما عن حياتها ونشاطها الاجتماعي سواء في علاقتها مع الطبيعة أو مع الجماعات الأخرى، وهذه التصورات تبدو ثابتة وراسخة بحيث لا يمكن تصور وجود الجماعة المذكورة بدونها"(٢)

والملاحظ على الوعي، الذي يقدمه الكاتبُ في الرواية المدروسة هو مسألة تقييم الشخصيات الروائية وتشريح وجهات نظرها، وكُلُّ تقييم أو تشريح يُمثل موقفًا إيديولوجيا يحاول الكاتبُ دومًا أن يُشرك القارئ في صياغته، وتقبله بل وتبني وجهة نظره، وهو بهذا يُحقق نوعًا من التماثل بين وجهة نظره (وفق منظورٍ جمعي) والقارئ وهذا الأمر يتبدى جليا عبر المراوحة في استخدام الضمائر بين الإفراد والجمع، ولعل ما يدعم هذا التماثل أيضا وجود الكاتب نفسه داخل عالم الرواية لا بوصفه كاتبها وحسب، بل بوصفه بطلها وراويها في وقت واحد؛ حيث لم يتستر فتحي غانم بأسماء أو أمكنة أخرى، ولم يخف من المحاسبة السياسية والاجتماعية، ولم يختبئ خلف أي قناع يُخفي علاقته أو ارتباطه بما يرويه.

تأسيسًا على ما سبق يتوحد الكاتب بشخصيات جماعة الجبل، ويتبنى رؤيتهم ومنظورهم محاولا توضيح ما "تشعر به الشخصية دون أن تقوله بوضوح، أو عما تُخفيه هي عن نفسها. إنها التقنية الأساسية لاستكشاف الروح، إن السارد يُخبرنا

---

[١]- لوسيان جولدمان. الوعي القائم والوعي الممكن. ترجمة: محمد برادة. ضمن كتاب. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. ص: ٣٣، وما بعدها .

[٢]- حميد لحمداني. النقد الروائي والإيديولوجيا. ص: ٦٩ .

عما يحدث في أعماق الشخصية"(١) حيث إن اندماج الشخصية الفردية بالمجموع أو محاولة توحد الذات بمجتمعها يعد صورة من صور رؤية العالم التي يُصبح الفاعل فيها جماعيا، وهو فاعل يعبر عن الطبقة الاجتماعية بآمالها وطموحاتها أو انكساراتها وهزائمها "**كلتنا شداد نسوانا ورجالتنا شداد .. ح نصبروا على البلا .. احنا منوطيش يا بوي**"(٢)

في رواية الجبل يلحظ القارئ الوعي القائم أو الموجود لدى عدد من شخصيات الرواية، وقد أسهمت عديدٌ من المعطيات، التي شكلت هذا الوعي لدى جماعة الجبل، ومنها العادات والتقاليد التي تُعَدُّ أطرا إيديولوجية ووقائع اجتماعية متوارثة ومترسخة في حياة الطبقة الاجتماعية، وهو الذي يدعوها للاستسلام والسير على خُطى الماضيين ورفض التغيير "**شوف يا حضرة الأفندي .. احنا موش متعلمين .. مغرضناش ننزلوا واصل .. الجبل جبلنا .. وجبل جدودنا وتركهم العمدة، يقولون كل ما يجول في صدورهم وهو ينظر إليهم في اطمئنان وسرور**"(٣)

في مثل الفقرة السابقة نجد الوعي القائم حاضرًا لدى شخصيات مجتمع الجبل، التي لا يعنيها ولا يشغلها إلا الاستمرار بالإقامة في هذا المكان ورفض النزول على رأي الحكومة ومغادرته، وهو ما يتفق مع ما أقره البحث الاجتماعي عن أن مجتمع الجبل والبدو "يكتسب الكثير من الصفات الكريهة التي تُفسد شخصيته بمجرد الإقامة في المدينة ولو لفترة قصيرة"(٤)، فماذا لو كانت هذه الإقامة إجبارية ؟

---

[١]- كريستيان انجلي وجان ايرمان. السرديات. ضمن كتاب: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. ترجمة: ناجي مصطفى. دار الخطابي. الدار البيضاء ١٩٨٩م. ص: ١٠٨، وما بعدها.

[٢]- فتحي غانم. الجبل . ص: ١٥٠ .

[٣]- المصدر السابق. ص: ٦١.

[٤]- هارولد دكسون. عرب الصحراء. ترجمة: محمد التيتي. نشره: سعود بن غانم الجمران العجمي. الكويت ١٩٩٧م. ص:٤٥ والإحالة المرجعية نقلا عن: ربيع محمود محمد. القبيلة والنص (تحولات البداوة في الرواية العربية) رسالة ماجستير منشورة على شبكة المعلومات. كلية الآداب. جامعة اليرموك. الأردن ٢٠١٦م. ص: ٤٠.

لقد نشأ أهلُ الجبل في واقع سائد وتربّى لديهم وعي فعلي قائم بضرورة التمسك به، وهذا الوعي ناتجٌ عن الماضي التاريخي وورثه ذهن الجماعة الشعبية، بشأن الكنز الذي تناقلوا أخباره تاريخيا وعلى رأسهم العمدة، الذي يمثل نظرية "حراس البوابة Gate Guards، وهي نظريةٌ تهتم _كما يُقرر عبدالله الغذامي (١٩٤٦: ـــ م)_ بأفعال الأفراد على وجه التحديد، وهم الأشخاص الذين بيدهم القرار فيما يجري تقديمه ... لاعتقادهم أن هناك بوابة ذهنية تجب حراستها وينصبون أنفسهم لهذا الدور"(١).

يتجسد الوعيُّ القائمُ أيضًا ويتمظهر من خلال استخدام الكاتب اللهجة الصعيدية في الحوار لتغدو اللغة ملكية اجتماعية، وليست ملكًا ذاتيا للراوي، وهي تحقيقٌ شكلي وعلائقي يؤكد حضور النزعة الجماعية من خلال الكيانات الشخصية، التي تُحقق الفعل اللغوي السردي من جهة، وتؤكد القيمة الاجتماعية من جهة ثانية؛ إذ "ليس للقيم الاجتماعية وجود مستقل عن اللغة، فالوحدات المعجمية الدلالية والتركيبية تُجسد مصالح جماعية، ويمكن أن تصبح مراهنات لصراعات اجتماعية واقتصادية وسياسية"(٢).

يتماس الفعل اللغوي والاجتماعي مع جملة من الأمثال والأغاني والمواويل الشعبية ويستدعيها بوصفها شكلا من أشكال التعبير التاريخي والموروث بوصف هذه الأغاني كانت متداولة في الفترة التاريخية والزمنية التي كُتبت فيها هذه الرواية كما في مثل قول الراوي: **"وكان حسين علي يردد الأغنية مع أبو ليلة في بعض مقاطعها فيهمس في حرارة "يا بهية وخبريني ع اللي جتل ياسين**

ثم يسكت ليعود مرددا:

---

[١]- عبدالله الغذامي. الثقافة التلفزيونية (سقوط النخبة وبروز الشعبي). المركز الثقافي العربي. ط٢. الدار البيضاء_ المغرب ٢٠٠٥م. ص: ١٦.

[٢]- بيير زيما. النقد الاجتماعي (نحو علم اجتماع للنص الأدبي). ترجمة: عايدة لطفي. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٩١م. ص: ١٧٧ .

"واحكم يا بيه النيابة .. جدامك مظاليم"

"عوج الطربوش على ناحية .. وحكم بأربع سنين"

"اتنين في الجصر العالي .. واتنين في الزنازين"[١]

ومع جملة من الموروثات وعلى رأسها الأغاني والمواويل الشعبية والأمثال يتفاعل الكاتبُ في تشكيل بنيته النصية الروائية مع عدد من البنى الأخرى وعلى رأسها البنية الشعبية، وهو تفاعلٌ يرسم مرحلة تاريخية محددة بواقعها ومرجعيتها، ويلف الرواية منذ بدايتها لنهايتها، ويجعلها تتناوب بين بعدين: بعد بنيوي إبداعي، وبعد واقعي مرجعي.

وعلى نحو متصل يُسهم الوعي التاريخي القائم إسهاما كبيرا في رفض أهل الجبل النزول إلى القرية الجديدة "**أما أهل الجبل فهم متمسكون بقصتهم .. ويؤمنون بجدهم الأكبر ولي الله، الذي سينقذهم من الفقر يوما، عندما يأتي لواحد منهم في المنام ويرشده إلى كنز كبير**"[٢]

وبالإضافة للوعي التاريخي يُضفر الكاتب عوامل تكوينية أخرى لرفض أهل الجبل النزول إلى المدينة الحكومية، ومنها أن المهندس صمم بيوتها على هيئات خاصة لا تناسبهم "**واستأنف العمدة يشرح مشكلته :**

_ كيف نعيش في البنايات .. ح ناكل كيف .. دا عملها جبب "قباب" .. والجبب ما يرجدش تحتها إلا الأموات .. وعامل لبهايمنا غرف، واحنا خلونا ننام جنب بهايمنا .. ما يستريحش إلا لما الواحد ينام ويشوف بهيمته نايمة جصاده ولا نسيبها تتخطف واحنا ما ندراش"[٣]

---

[١]- فتحي غانم. الجبل ص: ٩٣، ويُنظر نموذج آخر في الصفحة، التي تليها. ص:٩٤

[٢]- المصدر السابق. ص: ٤٨

[٣]- المصدر السابق. ص: ٧٧

واستكمالًا لعناية الكاتب بالفعل اللغوي بوصفه وسيلة لنقل المبادئ والأفكار، التي ينطلق منها الكاتب نجده يُطعم هذه اللغة بالمستوى الجنسي انطلاقا من أن "مرجع اللغة على هذا المستوى الجنسي يمنح المُتخيل واقعيته فيبدو العالم الروائي أو الوهمي حقيقيًا"(١) كما في علاقة حسين علي بالخوجاية "**وأجلسته الخوجاية على مقعد وثير، وقدمت له كوبا من الشاي .. وما كاد حسين يمسك بكوب الشاي، حتى انحنت عليه الخوجاية، وقبلته في فمه قبلة طويلة ساخنة.. وجلست على حجره، وهو لا يدري كيف يتصرف والأفكار تنتاب في رأسه طوال القبلة التي لا تنتهي ...**

إن جسمها بض .. وهي شقراء .. وتقبلني بحرارة ورغبة .. إنها تريدني ستكون عبدة لي .. هل أتزوجها .. شعرها أملس .. ثدياها يملأن كفي .. خصرها يتلوى بين أصابعي .. سأفوز بها إنها لي .. وفاز بها

ورقدت إلى جواره في سرير لم ينم على مثله في حياته، وهو يتحسس أغطية السرير بنفس الفضول واللهفة اللذاين يتحسس بهما جسدها"(٢)

يتعامل الكاتبُ في الفقرة السابقة مع الجنس لا بوصفه إثارة واشتهاء بين رجل وامرأة وحسب بل بوصفه أيضا بديلا تعويضيا ومرحلة خلاص من الفقر والعوز وهو ما يتبدى في الجملتين الأولى، والأخيرة، فليس المعنى في الفقرة السابقة هو المعنى الجنسي المصمت بل علاقة الجنس بغيره من العناصر الحياتية الأخرى وعلى رأسها الفقر، والقمع، وهذه العلاقة تتشكل عن طريق المتُخيل، الذي يعني هنا الأمر المرجو، أو الرغبة وهو ما يُعطي المُتخيل بعدًا جماليا داخل الرواية، وتظهر قيمته الجمالية من خلال الارتكاز على العنصر البنيوي والفني الذي يولده الدال وعلاقة الأخير بالمرجع الواقعي، الذي يُحيل إليه المدلول بوصفه مُتخيلًا.

١– يمنى العيد. في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي) ط٤. دار الآداب. بيروت١٩٩٩م. ص:١٩٣

٢– فتحي غانم. الجبل . ص: ١١٠

أما الوعيُ الممكن فهو وعيٌ متجاوزٌ واستشرافي يُعبر عما تطمح الجماعةُ أو الزمرة الاجتماعية إلى تحقيقه أو فعله مستقبلا استنادًا على الامكانات القائمة المتاحة، وهو ما يشي بالتداخل بينهما؛ "ذلك أن مستقبل الفرد في هذا التصور ينتهي بعد موته، والحال أن قيم الجماعة لها امتدادٌ في الماضي واستمرارٌ في المستقبل حسب التصور الديالكتيكي"(١)

ويتمثل هذا الوعي المتطور لدى شخصيات مجتمع الجبل من خلال بحثهم عن عالم أفضل، وسعيهم لحياة متطورة عما هم عليه من جمود وسكون من خلال بحثهم عن حلول للصعوبات والمشكلات التي تواجههم للوصول لدرجة التوازن، وهو الوعي الذي يُعبر عنه الراوي بمثل قوله: "**تقهقروا حتى أسندوا ظهورهم إلى الحائط. إلى الجبل. وهنا وقفوا ليحاربوا من أجل بقائهم في الدنيا إنهم لا يعرفون كيف يتقدمون. كيف يتطورون بحياتهم، فيلتفتون إلى الجبل. إلى الحائط من خلفهم ويضربون لعل الصخر ينفتح عن أمل .. عن مستقبل**"(٢)

مما سبق يُمثلُ استشراف إمكانية الحصول على الكنز الوعي الممكن لدى جماعة الجبل، ويمتد هذا الوعي للكثير من المواقف التي تُعبر عنه، وتتوافر لدى كافة شخصيات مجتمع الجبل، التي تسعى عبر تطلعاتها إلى تطوير حياتها "**إنهم متمسكون بمكانهم، يرفضون تحسين حياتهم من أي طريق .. لأن أحلامهم كبيرة، إنهم يحلمون بالذهب الكثير لا بالقليل الذي يرضى به الناس العاديون، أصحاب الأحلام العادية ..**"(٣)

وفي سبيل الوصول إلى حلمهم وتحقيقه يحاول أهل الجبل الوصول إلى الكنز فيمارسون أعمال الحفر أو الكحت مرات ومرات على امتداد سنوات طويلة "**وكانت الهمسات بين أبو حسين والخوجاية أو العمدة، تنتهي باجتماع الرجال في**

١- لوسيان جولدمان. العلوم الإنسانية والفلسفة. ص: ١٣

٢- فتحي غانم. الجبل . ص: ٦٤

٣- المصدر السابق. ص: ٤٢

أحد الكهوف ليلا، ليبدأوا "كحت الجبل" ويستمر "الكحت" شهورًا وفي إحدى المرات استمر الكحت سنتين .. ليكتشفوا في النهاية أن الكنوز استولى عليها أجدادهم، وتصرفوا فيها"[١]، وتستمر المحاولات، وهذه الاستمرارية هي التي تؤكد البنية الذهنية لجماعة الجبل؛ إذ إن الفرضية التي تُقرها البنيوية التكوينية ترتكز على أن "كل سلوك وكل فكر يعتبران محاولة لتقديم جواب دال عن وضعية محددة يعيشها أفراد فئة اجتماعية معينة بشكل يجعلهم يصطدمون بنفس المشاكل والعوائق ويحلمون بنفس المثاليات والمطامح، كما أن هذا السلوك من جهة ثانية يعتبر محاولة لخلق توازن بين الذات الفاعلة والموضوع المفعول"(٢)

ومن خلال الوعي الممكن تجتاح **الرؤية المأساوية أو الدرامية أو السوداء** كل شخصيات الرواية بداية من الراوي، التي تحول وعيه جراء تعاطفه مع جماعة الجبل إلى رؤية مأزومة بعد أن وقع في صراع بين الواجب متمثلا في وظيفته الرسمية بصفته محققا رسميا عليه إنجاز مهمته بشكل محدد، وعاطفته التي انحازت لأهل الجبل وحاولت نشدان الخلاص لهم "**كيف ننقل إنسانية أهل الجبل إلى حضارة أهل المدن دون أن نتلفها .. وكيف نحتفظ بتطور أهل المدن وتقدمهم دون أن تُصاب أعماقهم بالفراغ، فيتحولون إلى نفوس خاوية فارغة"(٣)**

يُركز الراوي في الفقرة السابقة من خلال طرحه المتباين على جوهر الفجوة أو الصراع بين الذات الداخلية والخارج الاجتماعي، بين إنسانية الأولى وأخلاقيتها الرحبة، ومؤسسية الثانية وموضوعيتها المصمتة.

تتكون الرؤية المأساوية في رواية الجبل أيضا من انفصال الفرد عن الواقع أو رفضه له، وهو الأمر الذي أدى بالراوي البطل إلى تقديم استقالته "**وجرفني تيار**

---

[١]- المصدر السابق. ص: ٩٧

[٢]- يوسف الأنطاكي مقدمة كتاب لوسيان جولدمان.العلوم الإنسانية والفلسفة. ص:١٥

[٣]- فتحي غانم. الجبل . ص: ٩٥

الحياة في القاهرة بعيدا عن أهل الجبل، ومرت بي الأيام والشهور .. وأنا أُهمل كل تحقيق أكلف به ... ومرت سنتان، واضطررت إلى الاستقالة"[١]

أما بالنسبة للجماعة الاجتماعية، التي يُعبر عنها الراوي فتتبدى الرؤية المأساوية لهذه الجماعة في طريق بحثها وتنقيبها عن الكنز، وتتمثل في شخصية حسين علي، الذي فقد أباه وشقيقته في سبيل التنقيب عن الآثار أو الكحت.

كما تتمثل هذه الرؤية بشكل واضح وجلي في الظلم والتهميش والاستغلال الذي يتعرض له أهل الجبل بداية من الحكومة وحتى مقاول الأنفار في المدينة الجديدة، الذي يفرض أتاوات عليهم "**كان الرجل يتكلم في حزم، ويُعلن أنه أصبح المسئول عن توريد الرجال للعمل ...، وأنه هو الذي سيختار من يعمل، ولا بد من دفع ثمن لهذا الاختيار**"[٢]

الوعي الخاطئ أو الزائف:

يتأتى هذا الوعي من خلال قصور إدراك الشخصية للواقع، والتمسك بأحلام زائفة والجري وراء طموحات عصية على التحقق وهو "اصطلاح مواكب للبطل المأزوم، والخائب في سعيه عندما يُخطئ فهم العالم فيتبع أوهامه التي تطوح به بعيدا عن الواقع نتيجة لاستحالة إدراكه للواقع، وقصور فهمه وزيف طموحاته وآماله الناتج عن محدودية أفقه"(٣)

ولعل أهم مظهرٍ من مظاهر الوعي الخاطئ تأكيد الراوي على فكرة معايشة الحاضر في الماضي، وذلك عبر استدعاء ذكريات الماضي لمعايشة أحداث الحاضر من خلال استحضار هذه الذكريات بوصفها خلفية توثيقية ومواجهتها بما

---

[١]- المصدر السابق. ص: ١٦٤، وما بعدها.

[٢]- المصدر السابق. ص: ١٠٧.

[٣]- محمد الأمين البحري. البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية (دراسة في نقد النقد). منشورات ضفاف. الجزائر ٢٠١٥م. ص: ١٦٥.

يحدث في الحاضر، ومن أمثلة ذلك استدعاء الراوي للواقعة الوحيدة لاستخراج كنز فيما مضى "**مرة واحدة _منذ خمس سنوات_ وقعت المعجزة واكتشفوا مقبرة غير مسروقة لأحد الأشراف الفراعنة، وجدوا فيها بعض التماثيل المرمرية .. أخذتها الخوجاية .. والعمدة هو الذي حدد الثمن. قالت له الخوجاية "اللي تطلبه يا عمدة" وفكر العمدة طويلا، ثم رفع رأسه، وقال لها في انفعال وحماس "ألف جنيه" .. قالها وكأنه يطلب منها القمر، ولم تقل الخوجاية شيئا، مدت يدها إلى صدرها، وأخرجت منه القمر.. أخرجت من بين ثدييها الألف جنيه، ووزع العمدة النقود على الجميع**"[١]

وأخيرًا يعرض الباحث في الشكل أو الجدول التالي ملخصا لآليات البنيوية التكوينية الإجرائية في رواية الجبل لفتحي غانم :

البنية الدالة	الفهم	التفسير	رؤية العالم
العنوان/ المكان/ الجبل	الولاء والتبعية	الالتزم	رؤية واقعية
الصراع الطبقي	الفجوة والتفاوت	المقاومة والاستغلال	رؤية اشتراكية
الشعبي والرسمي	التمرد والثبات	الرأسمالية والاستبداد	رؤية ثورية

[١]– فتحي غانم. الجبل . ص: ٩٧

الخاتمة وأهم نتائج البحث:

تناول هذا البحثُ "البنيوية التكوينية وآلياتها في رواية الجبل لفتحي غانم"، ورمى الباحثُ من خلال بحثه إلى قراءة الرواية وتحليلها للكشف عن بنيتها الداخلية الدالة، بوصفها نصا أدبيا مُشبعًا بالدلالات الاجتماعية؛ حيث تمكن فتحي غانم من رصد حياة أهل الجبل بوصفهم جماعة أو طبقة اجتماعية، وحاول تصوير حياة هذه الطبقة تصويرا واقعيا، وقد تجلت في هذا التصوير عناصرُ الدينامية والتنوع والثراء، وقدم الكاتب من خلال الرواية المدروسة تحليلا واضحا للمبادئ والأفكار التي آمنت بها هذه الطبقة، وتمسكت بها حتى نهاية العمل.

هذا، وقد وضح للباحث من خلال دراسته لموضوع البحث **(البنيوية التكوينية وآلياتها في رواية الجبل لفتحي غانم)** جملةً من النتائج العلمية، لعل أبرزها ما يلي:

_ أعادت البنيوية التكوينية الحياةَ للسياق، الذي أقصته البنيوية الشكلية، وذلك من خلال تبني المنهج البنيوي التكويني لمبدأي: الفهم، والتفسير أو الداخل والخارج في دراسة النص.

_ وفقًا لعناصر الاتصال بين البنيتين: الداخلية (النص اللغوي)، والخارجية (الواقع السياقي وبخاصة الاجتماعي) جاءت البنية الدالة "الجبل" _بوصفها مفتاحا علاماتيا، ومدلولا سرديا مكانيا تكرر وروده بكثره في الرواية_ تأكيدًا على النزعة الواقعية والحسية للعمل، وهي بنيةٌ تدل على الارتباط الجماعي بالمكان.

_ لم تكن رواية الجبل عملا ذاتيا بل هي عملٌ جماعي يُعبر عن مجتمع الجبل بما يحمله من فكر، وعادات، وتجارب وهو الأمر الذي شكل سياجا وحصنا منع هذا المجتمع من الذوبان في غيره من المجتمعات.

_ قدم فتحي غانم في رواية الجبل وصفا إثنوغرافيا، فاهتم ببيئة الجبل وعاداته وتقاليده بوصفها بيئة لا يعرفها كثيرٌ من القراء، وقام بدمج هذا الوصف بالمبنى الحكائي ومساره في نسيج واحد مترابط.

_ استطاع الكاتب رسم البنى الذهنية لجماعة الجبل _وعلى رأسهم العمدة_ بدقة وحرفية وهو رسمٌ ينم عن خبرة كاتب عايش هذه الطبقة وخبر تطلعاتها، وطموحاتها وما واجهها من تحديات وصعاب.

_ يعد اختيار الكاتب للزمن الروائي (من الأربعينيات حتى ما بعد ثورة يوليو) اختيارا موفقا بوصفه يرصد واقعا قائما ومتغيرا في آن واحد.

_ حققت اللهجة الصعيدية التي اعتمدها الكاتب لغة للحوار في تموضعها النصي خصوصية تعبيرية، وخصوصية اجتماعية وتاريخية في الوقت نفسه وقد حررت هذه اللغة العملَ من ذاتية الكاتب لتُعبر عن بنية كبرى تمثل الواقع الاجتماعي؛ حيث تماثلت لغة السرد مع موضوعته على مستوى الشخصيات والأحداث والمستوى الإيديولوجي والاجتماعي.

_ ارتكزت رؤية العالم عند جماعة الجبل حول فلسفة الرفض أي رفض الحداثة والتغريب المفروضين فرضا ومحاولة ربط مصير الجماعة بمصير الفرد (المهندس ممثلا عن الحكومة).

_ تفاعل فتحي غانم من خلال رواية الجبل مع عدد من القضايا الاجتماعية، واستطاع الكاتبُ بحرفية أن يُشكل وعي شخصياته وفقا لمفهوم "الوعي الطبقي"، الذي تمثل لدى الكاتب في محاولته كشف الطبقة المتسلطة بأنويتها ومصالحها الشخصية، وإزاحتها، ومحاولة إنصاف طبقة مجتمع الجبل.

_ تجاوزت الشخصية الروائية في رواية الجبل في كثير من الأحايين درجة الوعي الاجتماعي وتنامت إلى درجة الوعي الإنساني العام، وذلك من خلال تركيز الكاتب على الجوانب الجوانية للشخصيات.

_ تنهض سردية الجبل في إطار الوعي الممكن على التضافر الواضح والجلي بين الواقع والحلم، الواقع المحبط، والحلم بواقع جديد تتحقق فيه الرغبات.

_ لجأ فتحي غانم إلى عدد من التقنيات التي حاول من خلالها سرد تيمات القهر، والفقر الذي تعاني منه شخصيات مجتمع الجبل ومنها الذاكرة أو فعل التذكر، والحلم ... وغيرهما.

وبعدُ، فلا يزال البحث البنيوي التكويني يعاني من عديد من الإشكالات وبخاصة فيما يتعلق بالجانب الإجرائي والتطبيقي؛ ولذا يُوصي الباحث بضرورة الاتفاق على رؤية موحدة للآليات والوسائل والتقنيات الإجرائية لهذه المنهجية، ومن قبل بضبط العدة الاصطلاحية النظرية وبخاصة أن البنيوية التكوينية تنبثق عن مجموعة من المرجعيات المعرفية الغربية الخالصة، التي يصعب على الباحثين الاتفاق حولها وحول حمولاتها الفكرية، مع ضرورة التأكيد على أهمية هذا المنهج ومردوديته؛ إذ إنه خادم للواقع الإنساني بشتى صوره الاجتماعية، والسياسية، والتاريخية.

وبوجه عام يتبين لنا مما سبق تناوله أن رواية الجبل تندرج ضمن روايات الواقعية الاشتراكية، وهي الاتجاه الذي لا يزال في الدرس النقدي العربي بحاجة إلى بحوث ودراسات عديدة تحاول كشف اللثام عن مدى نجاعته، وفاعليته وبخاصة من خلال مستوى الإجراء التطبيقي الخاص بمنهج البنيوية التكوينية، وذلك دونما مساس بهوية العمل وبلا إفراط أو تفريط في المعالجة التطبيقية، ولا يسع الباحث في نهاية بحثه إلا الاعترف بنواحي القصور التي قد تنتاب هذا البحث فهذا هو مطمحه، وإن لم يبلغه فهو قد تطلع إلى تحقيقه.

المصادر والمراجع

أولًا ـ المصادر:

_ فتحي غانم: الجبل. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة الأدب العربي (الأعمال الإبداعية) مهرجان القراءة للجميع. القاهرة ١٩٩٤م.

ثانيًا ـ المراجع العربية :

_ إبراهيم عباس. الرواية المغاربية تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي. دار الرائد للكتاب. الجزائر ٢٠٠٥م.

_ إنجيل بطرس سمعان. دراسات في الرواية العربية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٧م.

_ جمال شحيد. في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان جولدمان. دار التكوين. دمشق ٢٠١٣م.

_ حميد لحمداني. النقد الروائي والإيديولوجيا (من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي). المركز الثقافي العربي. بيروت ١٩٩٠م.

_ سعيد الغانمي.العصبية والحكمة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ٢٠٠٦م.

_ السيد ياسين.التحليل الاجتماعي للأدب.مكتبة مدبولي. ط٣.القاهرة.د.ت.

_ عبدالقادر بن سالم. بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد. منشورات ضفاف الاختلاف. الرباط ٢٠١٣م.

_ عبدالملك مرتاض. نظرية الرواية (بحثٌ في تقنيات السرد) سلسلة عالم المعرفة (العدد ٢٤٠) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ديسمبر ١٩٩٨م.

_علي الورَدي. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي (محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضَوء علم الاجتماع الحديث) د.ت.د.ب.د.ن.

_ محمد الأمين البحري. البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية (دراسة في نقد النقد). منشورات ضفاف. الجزائر ٢٠١٥م.

_ محمد عزام. فضاء النص الروائي (مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان). دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية. سوريا ١٩٩٦م.

_ محمد نديم خفشة. تأصيل النص (المنهج البنيوي لدى لوسيان جولدمان) مركز الإنماء الحضاري. سوريا ١٩٩٧م.

_ محمود نسيم. المخلص والضحية (رؤى العالم لدى محمود دياب وصلاح عبدالصبور).الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) القاهرة ٢٠١٣م

_ مجموعة من المؤلفين. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. راجع الترجمة: محمد سبيلا. الطبعة الثانية. مؤسسة الأبحاث العربية. لبنان ١٩٨٦م.

_ ميجان الرويلي، وسعد البازغي. دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحا نقديا معاصرا) المركز الثقافي العربي. الطبعة الثالثة. بيروت_ الدار البيضاء ٢٠٠٢م.

_ نورالدين صدار. البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة. عالم الكتب الحديث. الأردن ٢٠١٨م.

_ يمنى العيد. في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي) ط٤. دار الآداب. بيروت ١٩٩٩م.

_ يوسف وغليسي. إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد. منشورات الاختلاف. الدار العربية للعلوم (ناشرون) الجزائر ٢٠٠٨م.

ثالثًا ـ المراجع الأجنبية المترجمة:

_ إديث كريزويل. عصر البنيوية. ترجمة: جابر عصفور. دار سعاد الصباح. الكويت ١٩٩٣م.

_ أرنست فيشر. الاشتراكية والفن. تر: أسعد حليم. دار الهلال. القاهرة ١٩٦٦م.

_ بيير زيما. النقد الاجتماعي (نحو علم اجتماع للنص الأدبي). ترجمة: عايدة لطفي. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٩١م.

_ جورج لوكاش. دراسات في الواقعية. ترجمة: نايف بلّوز. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط٣. بيروت ١٩٨٥م.

_____. الرواية. ترجمة: مرزاق بقطاش. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. د.ت.

_ رامان سلدان. النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة: جابر عصفور. دار قباء. القاهرة ١٩٩٨م.

_ الطاهر لبيب. سوسيولوجيا الغزل العذري. ترجمة: مصطفى المسناوي. دار الطليعة للطباعة والنشر. الدار البيضاء ١٩٨٨م.

_ فردينان دي سوسور. علم اللغة العام. ترجمة: يوئيل يوسف عزيز. مراجعة: مالك يوسف المطلبي. سلسلة آفاق عربية (٣) بغداد ١٩٨٥م.

_ فيليب هامون. فيليب هامون. سميولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة: سعيد بنكراد. تقديم: عبدالفتاح كيليطو دار الحوار للنشر والتوزيع. سورية ٢٠١٣م.

لوسيان جولدمان وآخرون. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. ترجمة: محمد سبيلا. ط٢ مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٦م.

لوسيان جولدمان. الإله الخفي. ترجمة: زبيدة القاضي. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. وزارة الثقافة. دمشق ٢٠١٠م.

_____وآخرون. الرواية الجديدة والواقع. ترجمة: رشيد بنحدو. (كتاب الدوحة) وزارة الثقافة. قطر ٢٠١٨م.

_____. العلوم الإنسانية والفلسفة. ترجمة: يوسف الأنطاكي. مراجعة: محمد برادة. المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة) القاهرة ١٩٩٦م.

_ مجموعة من المؤلفين. نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. ترجمة: ناجي مصطفى. دار الخطابي. الدار البيضاء ١٩٨٩م

_ يوري لوتمان. مشكلة المكان الفني. ترجمة: سيزا قاسم. ط٢. عيون المقالات. الدار البيضاء. المغرب ١٩٨٨م.

رابعًا ـ المجلات والدوريات:

_ جابر عصفور. عن البنيوية التوليدية قراءة في لوسيان جولدمان. فصول (مجلة النقد الأدبي) المجلد الأول. العدد الثاني. القاهرة ١٩٨١م.

_عبدالغني بارة.المسارات الإبستمولوجية للبنيوية.فصول العدد ٤٥ صيف ٢٠٠٤م.
_ لوسيان جولدمان. مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية. ترجمة: خيري دومة. فصول (مجلة النقد الأدبي) العدد الثاني. المجلد الثاني عشر. القاهرة ١٩٩٣م.
_ نبيل يوسف حداد. إشكالية المؤلف الراوي البطل في رواية الجبل لفتحي غانم. المجلة العربية للعلوم الإنسانية. المجلد التاسع. العدد الثالث والثلاثون. مجلس النشر العلمي. جامعة الكويت ١٩٨٩م.

خامسًا ـ الأطروحات والرسائل العلمية:

_ ربيع محمود محمد.القبيلة والنص (تحولات البداوة في الرواية العربية) رسالة ماجستير منشورة على شبكة المعلومات. كلية الآداب.جامعة اليرموك. الأردن ٢٠١٦م.
_ محمد صالح الشنطي. الرواية العربية في مصر (من عام ١٩٥٢ : ١٩٦٧م). رسالة ماجستير مخطوطة. قسم اللغة العربية. كلية الآداب. جامعة القاهرة ١٩٨٣م.

سادسًا ـ المقالات المنشورة على شبكة المعلومات الدولية:

_ محمود الدسوقي. كيف أنشأ حسن فتحي قرية القرنة الجديدة. بوابة الأهرام الإلكتروني. الثلاثاء ٨ ديسمبر ٢٠٢٠م.